شَـــذَا العَبـــيـر

شرح قَصِيدَة: «أنـــا الفـقـيـــر»

لنـاظـمها شيـــخ الإســـلام

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الـمتوفَّى سنة ٧٢٨ هـ

تصنيف:

د. الصـــغيّـــر بـن عـمّـــار

– غفر الله له ولوالديه –

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي يَصمُدُ إليه الغَنيُّ والفقير، تعالى وتَقَدَّس عن المُنازِع والشريك والظهير، له الحمد في الأولى والآخرة، يُحيي ويُميت وهو على كُلِّ شيءٍ قدير، طيَّبَ ذِكرُه أفواهَ الـمُحِبِّين ففاحَت من شَذَا المِسك ورائحة العَبير، تفرَّد بكمال الحياة ومُطلَق الغِنى، وحَكمَ على عِباده بدَوام الفَقر وحَتْميَّةِ الفَنَاء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله شهادَةَ الإقرار بالتوحيد، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُه ورسولُه، أرسله اللهُ بالدعوة إلى الحقِّ والنَّذارَة عن الإشراك والتنديد، مَن سَلَك سبيلَه فهو الـمُقَرَّبُ السَّعيد، ومن حادَ عن هَديِه وسُنَّتِه فهو الشَّقيُّ البعيد، صلَّى الله عليه وعلى آلِه وصَحبِه نُجومِ الاهتداء، الذين سَارُوا إلى الله بين منازل الحُبِّ والخَوفِ والخُشوع والإخباتِ والرَّجاء، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وجَمَعنا بهم في مَنازِل السُّعَداء.

أما بعد،

فهذا شرح متوسِّطٌ على **قصيدة: «أنـا الفـقـيـر»، لشخ الإسلام أحمدَ بنِ عبد الحليم ابن تيمية الـحَرَّاني**، المتوفَّى سنة ٧٢٨ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى،

وأصل هذا الشرح مجلِسُ إملاءٍ ألقيته عبر «**شبكة الأنترنت**» على مجموعة من طلاب العلم، وكان ذلك ضحى الأحد ١٦ من رمضان لعام ١٤٣٨، الموافق لـــ ١١ جوان من عام ٢٠١٧ ميلادي.

ولـمَّا فُرِّغَ، استخرتُ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ في إخراجه في مؤلَّف، ثم راجعتُ التفريغ، وحرَّرتُه، وأضفتُ له العديدَ من المسائل، وعزَوتُ نُقولَه إلى كتب أهل العلم، **إذْ مِن بركة العلم نِسبةُ كُلِّ قولٍ لصاحبِه، وعَزوُ كُلِّ نَقلٍ لكاتِبه**، وربما أحَلْتُ على ما يَسَّر اللهُ لي جمعَه وتَرتِيبَه، أو انتقاءَه وتهذيبَه، وليس ذلك من باب المفاخرة والإشادة، ولكن طلَـبًا للاختصار والإفادة، والله مِن وراء القَصد.

وكان البدءُ في تحرير هذا الشرح عَصرَ الجمعة ١٣ من شهر شوال ١٤٣٨، الموافق لـ ٠٧ من جويلية ٢٠١٧، وانتهيتُ منه تعليقًا وتَنسيقًا – بفضل الله سُبحانه– ليلةَ الاثنين ٢٢ من شهر ذي القعدة لعام ١٤٣٨، الموافق لـ ١٤ أوت ٢٠١٧ بمدينة «تُولُوز» بفرنسا، وسمَّيتُه:

«شَذَا العَبير شرحُ قَصِيدَة: «أنـا الفقير»».

والشَّذَا: شِدَّةُ ذكاءِ الرِّيحِ الطَّيِّبة.[١]

وأما **العَبِير**: فهو نوعٌ مِن الطِّيب ذُو لَون، يُـجْمَع مِن أخْلاَط.[٢]

وعليه، فـ«**شَذَا العَبير**»: هو شدَّةُ رائِحَةِ الطِّيب، وهذا لا يـكون إلَّا باتِّباع منهج الكتاب والسنة وما كان عليه سلفُ الأمة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، إذْ لا عِصمَةَ للعَبد إلَّا في لُزوم طريقِتِهم، ولا نَجاةَ له إلَّا في رُكوب سفينتِهم، وما سِوى ذلك فآراءٌ مُهلِكة، وأهواء مُنتِنَةٌ، يا للهِ كَمْ أزكَمت مِن أُنوف! وأضَلَّت مِن جُموعٍ بالأُلوف!!

اللهُمَّ أَصْلِح لنَا دِيننا الَّذِي هو عِصْمةُ أَمْرِنا، وأَصْلِحْ لنا دُنيانا التي فيها مَعاشُنا، وأَصْلِحْ لنا آخِرَتَنا التي فيها مَعادُنا، واجعَل الحياةَ زِيادةً لنا في كُلِّ خَير، واجعَل الـموتَ راحَةً لنا مِن كُلِّ شَر.[٣]

١- انظر «لسان العرب» (١٤/ ٤٢٧). والشَّذى بالقَصر هو: الشر والأذى، يُقال: أذَيتُ وأَشْذَيْتُ. وانظر «النهاية في غريب الحديث» (ص ٦٣٣).

٢- «النهاية في غريب الحديث» (ص ٧٧٥).

٣- هذا دعاء نبوي جامع، رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٢٠)، بلفظ: «اللهُمَّ أَصْلِح لي ديني...»، **وفي هذا الدعاء: خَيرُ الدِّين، وخَيرُ الدنيا، وخَيرُ الآخرة**. وإذا صلَحت لك هذه الثلاث، فما الذي يضرُّك؟!! وإن ضاعت، فبئس ما غَرَّك؟!!

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه، وسلَّم.

وكتب: الصغيّـر بن عمّـار[١]

ظهر الاثنين ٢٢ من ذي القعدة لعام ١٤٣٨

الموافق لـ ١٤ أوت ٢٠١٧ بمدينة «تـولـوز» بفرنسا

١- وأعدتُ النظر في هذا الكتاب واختصار مباحثه، مع استدراك بعض الأخطاء التي نبهني عليها **شيخُنا عبدالله العنقري** -نفع الله به-، حيث شرَّفني بقراءة الشرح مع التعليق على بعض المواطن منه، وأثبتُّ ملحوظاته في هذه الطبعة، فجزاه الله خيرا مِن ناصح ومُعلِّمٍ للخير. وقد ختم رسالته لي بقوله: «**وفي الختام فالشرح مفيد. والحاجة لإخراجه ماسَّة، خاصة وأنَّ منحرفي الصوفية هم أكثرُ من يتكلم في هذه الموضوعات**».

وقد تمَّت مراجعة الشرح أكثرَ من مرَّة آخرُها: عصر الاثنين ٢ من شهر الله الـمُحرَّم لعام ١٤٤٦، الموافق لـ ٨ جويلية ٢٠٢٤، بتونس الـخضراء -حرسها اللهُ دارًا للعِلم والإيمان-، أثناء الإجازة الصيفية.

ولَّما أعدتُ إرسالَ الشرحِ مرَّةً أخرى للشيخ عبدالله العنقري -نفع الله به-، راسلني (يوم الأحد ١ محرَّم ١٤٤٦) قائلًا: «**اطلعتُ عليها اطلاعة سريعة منذ مُدة، وكالعادة كانت نافعةً ومفيدة. فانشُرها نشَر لك اللهُ حبَّه في سمائه وأرضه**».

نصُّ القصيدة

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنـــا الفَقـــيرُ إلى رَبِّ البَريّـــــــاتِ أنـا الـمُسَيكينُ في مَجْـمـوعِ حـــالاتِـي

أنـــا الظَّلُـــومُ لنَفْسـي وهِـيَ ظـالِمَتي والخَـيرُ إنْ يَأتِنـا مِـنْ عنـدِهِ يـاتِـي

لا أسْـتطيعُ لِنَفْسـي جَلْـبَ مَنْفَعَـةٍ ولا عَـنِ النّـفْسِ لـي دَفْـعُ المَضَـرّاتِ

ولـيْسَ لـي دُونَـهُ مَـوْلىً يُدَبِّـرُنـي ولا شَـفيعٌ إذا حاطَـتْ خَطِيئـاتِـي

إلاَّ بـإذنٍ مِـنَ الـرَّحْمنِ خالِقِنَـا إلى الشَّـفيعِ كما قـدْ جـا في الايـاتِ

ولسْـتُ أَمْلِـكُ شـيئاً دُونَـهُ أبَـدًا ولا شَـريكٌ أنـا في بَعْـضِ ذَرَّاتِـي

ولا ظَهـيرٌ لَـهُ كَـيْ يَسْـتَعينَ بـهِ كمـا يكـونُ لأرْبـابِ الولايـاتِ

والـفَقْرُ لـي وَصْـفُ ذاتٍ لازِمٌ أبَـدًا كمـا الغِـنَى أبَـدًا وَصْـفُ لَـهُ ذاتِـي

وهـذِهِ الحَـالُ حَـالُ الخَلْـقِ أجْمَعِهِـمْ وكُـلُّـهُمْ عِـنْدَهُ عَبْـدٌ لَـهُ آتِـي

فَـمَنْ بَـغى مَطْلَبًـا مِـنْ غَيْـرِ خـالِقِهِ فَهْـوَ الجَهـولُ الظَّلُـومُ المُشـرِكُ العَـاتِي

والحَـمْدُ للهِ مِـلْءَ الكَـوْنِ أجْمَعِـهِ مـا كـانَ مِنْـهُ ومـا مِـنْ بَعْـدُ قَـدْ يَـاتِـي

شرح القصيدة

التعريف بالقصيدة

هذه أبيات رائقة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قد أرسلها إلى تلميذه البارِّ ابنِ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر عمره، كما ذكر ذلك ابنُ القيم نفسُه في «**مدارج السالكين**»[١] لما تكلم عن «منزلة الخشوع» وعن الانكسار بين يدي الله وإظهار المَسكَنة والفاقَة والذُّل والخُضوع له سبحانه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبعَث إلي [أي ابن تيمية] في آخِرِ عُمرِه قاعدَةً في التفسير بخَطِّه، وعلى ظَهْرِهَا أبْيَاتٌ بخَطِّهِ من نَظْمِهِ»، ثم ذكَر القصيدةَ كاملةً.

وذكرها أيضا تلميذُه النجيب ابن عبد الهادي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «**العقود الدرِّية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**»، وذكر أنه قالَها في آخر حياته وهو بسجن القَلعة.[٢]

١- (١/ ٣٩٢). وذكر منها بيتًا واحدًا في مطلع «طريق الهجرتين» (ص ١١)، وكذلك لما تكلم عن «منزلة الفقر» في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢)، و«منزلة الإنابة» (١/ ٣٢٧)، وهو قوله: «والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا...». إلخ.

٢- انظر «العقود الدرية» (ص ٤٥٠). وفيها بيت زائد في آخرها، وهو قولُه:

ثـمَّ الصَّـلَاة علـى الْمُخْتَـار مـن مُضَـرٍ خيـرِ البَرِيَّـة مـن مَـاضٍ ومِـن آتِـي

=

وكذلك، نَسبها إليه تلميذُ تلميذِه ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، حيث قال في رسالته «**اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى**»: «ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى...»، ثم ساق البيتين الأولين من القصيدة بلفظ مقارب.(١)

وهذه القصيدة من بحر «**البسيط**»(٢)، وعِدَّتُها أحد عشَر بيتًا (١١)، فهي قليلةٌ في كلماتها، سَلِسةٌ في ألفاظها، جَزيلةٌ في معانيها، غزيرةٌ في فوائدها،

=

قال محقق الكتاب (ط. المجمع) عن هذه الزيادة: «البيت الأخير لم يذكره ابن القيم، وليس هو من نظم شيخ الإسلام كما بيَّنه ناظمُه في نسخته التي بخطه (الكواكب الدراري- الظاهرية رقم ٥٩٧ – ق ٨٩)».

١- وهما:

أنـــا الفقيـــرُ إِلَـــى رب **الســـماوات** أنـا المُسَيـكينُ في مَجْمـوع حـالاتِـي
أنـــا الظَّلُـــومُ لنَفْسـي وهِـيَ ظـالِمَتي والخَيْـرُ إنْ **جاءَنـا** مِـنْ عِـنْدِهِ يـــاتِـي

انظر «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ١٣٩).

٢- وتفعيلاته هي:

مستفعلن فـاعلن مستفعلن فـاعلن مستفعلن فـاعلن مستفعلن فـاعلن

قال الناظم:

إن البســيطَ لديــهِ يُبسَــطُ الأمــلُ مســتفعلن فــاعلن مســتفعلن فَعِــلُ

انظر «العَروض المختصَر» لنور الدين صَمُّود (ص ٧٥-٨٠).

وهذا الذي حَدَاني لإقرائها وشرحها، بعَون الله وتوفيقه.

ومما يَحسُن التنبيهُ عليه، أنَّ لشيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مشاركةً حَسَنةً في النَّظم**، وله أشعار جَميلةٌ مَبثوثَةٌ في كتبه وكتب طلابه، جمعها الشيخ عبد السلام بن برجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابٍ سماه: «**مجموع شعر شيخ الإسلام ابن تيمية**»[١]، ومن ذلك «التائية في القدر»، وهذه «التائية في السلوك»، و«اللامية في الاعتقاد»، و«ألغاز فقهية»، وغير ذلك من جَميل الأبيات وعَذب الكلمات، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة على ما قدَّم في سبيل نصرة دين الله بالسِّنان واللِّسان والبَنان، نثرًا ونظمًا.

وصدق تلميذُه وصاحبُه ابنُ القيم حين قال فيه[٢]:

ولـــه الـــمَقاماتُ الشَّـــهيَرةُ في الـــوَرى

قـــــد قامَهـــــا للهِ غيـــــرَ جَبـــــانِ

نصَـــــر الإلـــــهَ ودِينَـــــهُ وكتابَـــــهُ

ورســـــولَهُ بالسَّـــــيفِ والبُرهـــــانِ

١- ويُسمى أيضا «الصحيح من النظم الفَصيح»، يقع في ٤٤ صفحة، وقد طُبع بذيل كتاب «إبطال نسبة الديوان المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية»، ثم طُبع في مجموع مؤلفات وتحقيقات الشيخ ابن برجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٣٧، ترقيم مستقل لكل رسالة).

٢- «الكافية الشافية» (ص ٢٣١-٢٣٢).

وهذه القصيدة اللطيفة التي مَطلَعُها «أنا الفقير...»، نستطيع أن نُسمِّيَها: «**قصيدة في الافتقار والمَسكنة والخُضوع لله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»[١]، لأنَّ الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ استفتحها بقوله:

أنـــا الفَقيـــرُ إلـــى رَبِّ البَريّـــــــاتِ

أنـا المُسَـيكينُ في مَجْمـــوعِ حـــالاتِـــي

١- وسماها الشيخ ابن برجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تضرُّع إلى الله وافتقار إليه**».

تعريف الفقر والمسكنة لله

والفقر: ضدُّ الغِنى، وليس المقصود به هنا قِلَّة المال وضعف ذات اليد، بل المقصود به هو الفقر لله جل وعلا إخباتا وخُضوعا وخُشوعا ومَسكنة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.[١]

والفقر بمعنى قِلة المال ليس ممدوحًا في ذاته، إنما يُمدحُ إذا رافقه الصبر على تلك الحال، وإلا فقد تجد في سِلك الفقراء من ملأَ الكِبرُ قلبَه وغطَّى الجبروتُ فؤادَه، كما جاء في الحديث: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ**»، وفي روايةٍ: «**ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، وفيهم: «**وعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»[٢].

وقد يكون العَبدُ غنيًّا، وهو من أطوَع الناس وأتقاهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

١- **انظر كلام شيخ الإسلام في مصطلح «الفقر»** بين الزهاد والمتصوفة من جهة، وبين ما جاء في الكتاب والسنة وكلام الصحابة ومن تبعهم من جهة أخرى، وذلك في عدة مواطن من كتبه ومن «الفتاوى»، «الفهارس» (٣٦/ ٦٥٦-٦٥٧)، وعنه ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص ٢٠٧)، ومواطن أخرى. وانظر «منزلة الفقر» في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥١)، وفصولًا نافعةً في الفقر لله وكمال غِنَى الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في «طريق الهجرتين».

٢- رواه مسلم (١٠٦).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله؛ ليس المرادُ بالمَسكنة عَدَمَ المال، **بل قد يكون الرجل فقيرًا من المال وهو جَبَّار**، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «**ثلاثةٌ لا يكلِّمهم**..».

ويقول شهاب الدِّين القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس الزهدُ عَدمَ ذاتِ اليَد، بل عَدمُ احتِفال القلب بالدنيا وإن كانت في مِلكه، فقد يكون الزاهدُ من أغنى الناس وهو زاهدٌ، **وقد يكون الشديدُ الفَقر غيرَ زاهد بل في غاية الحِرص بحَسب ما اشتمل عليه قلبُه من الرغبة في الدنيا**».

وعليه، فقد يكون في الفقراء من هو أفضل بكثير من الأغنياء، وقد يكون في الأغنياء من هو أفضل بكثير من الفقراء.

١- «الفتاوى» (١٨/ ٣٢٦).

٢- «الذخيرة» (١٣/ ٢٤٥).

الـمفاضلة بين الفقير الصابر والغني الشاكر

ومما تنازع فيه أهلُ العلم: الـمفاضلة بين الفقير الصابر والغني الشاكر؟ وهي مسألةٌ ذاتُ نِزاعٍ كثير[١]، اختار فيها ابنُ تيمية أنَّ أفضلَهما: أتقاهُما، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة.[٢]

وأما أنَّ الفقراءَ يسبقون الأغنياء إلى الجنة، فلأنه لا حساب عليهم، بخلاف الأغنياء الذين يحاسبون على أموالهم، فمن كانت حسناته أرجَحَ من حسنات فقير كانت درجته في الجنة أعلى وإن تأخر عنه في الدخول، ومن

١- انظر «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٤٣)، و«الآداب الشرعية» (٣/ ٤٨٧)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٧٥)، و«النسق الغالي والنفس العالي» (ص ٣٠٤).

٢- انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/ ١٢)، و«فهارس الفتاوى» (١١/ ١٢)، وعدة مواضع أخرى من كتبه، وعنه جماعة ممن جاء بعده، وفصَّل كلامه ابن القيم – كعادته– في «عدة الصابرين».

وأحسَنَ العلامةُ ابن عثيمين في «الشرح الممتع» (١٠/ ٤٥٥، ط. الوقفية) لمَّا وصَف حالَ ابنِ القيم مع شيخه ابن تيمية، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فشيخُ الإسلام يَبني العَظم، وابنُ القيم يُلَيِّس ويُزَيِّن ويصبغ**، ويأتي بأشياءَ يوضِّحُ فيها كلامَ الشيخ...». وهذا الكلام مختصر في الطبعة الرسمية التي أخرجتها مؤسسةُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣/ ٥٣).

كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه.

يقول الإمامُ ابنُ دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وإنما النظر إذا تساويا في أداء الواجب فقط، وانفرد كلُّ واحدٍ بمصلحةِ ما هو فيه، وإذا كانت المصالحُ متقابلةً ففي ذلك نظر، يرجع إلى تفسير الأفضل**. فإنْ فُسِّر بزيادة الثواب، فالقياسُ يقتضي أن المصالحَ المتعديةَ أفضلُ من القاصرة. وإنْ كان الأفضلُ بمعنى الأشرفِ بالنسبة إلى صفات النفس، فالذي يحصُل للنفس من التطهير للأخلاق، والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقر: أشرف، فيترجح الفقراء».

وعلى المسلم أن يـجمعَ بين ثواب الشكر وثواب الصبر، فيكون له حظٌّ منهما، وهذا هو الدِّين الكامل، وبه يـتِمُّ الـمأمولُ للآمِل.[٢]

١- «إحكام الأحكام» (١/ ٣٢٥).

٢- انظر «النسق الغالي والنفس العالي» (ص ٢٩٩).

والحاصل، أنَّ الفقرَ المحمودَ هو الفقر لله، بالافتقار والـمَسكنة بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو الذي مدحته الشريعة.

معنى لفظ «الفقر» في القرآن

ولفظ «الفقر» في الشرع:[١]

- **يراد به فَقرُ المخلوق إلى خالقه**، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فاطر: ١٥]، وهؤلاء لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه.

- **ويُراد به الفقرُ من المال** كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[التوبة: ٦٠]، ويُقابلهم الأغنياء وأصحاب الجِدَة. وهؤلاء صنفان: أهلُ الصدقات، وأهلُ الفيء.

قال الله جَلَّ جَلَالُهُ في الصنف الأول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ٢٧٣].

وقال جلَّ وعَلا في الصنف الثاني -وهم أفضل الصنفين-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

١- انظر «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ٤٣، بتصرف)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤١٠).

وَرِضۡوَٰنٗا ﴾[الحشر: ٨]، وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات، وجاهدوا أعداء الله باطنًا وظاهرا.

قلت: والمقصود بهم هنا: أهلُ الفيء وهم الفقراء المجاهدون المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حقٍّ حتى صاروا فقراءَ بعد أن كانوا أغنياء، فجاء الأمرُ الإلـٰهي بإعطائهم من الفيء جَبرًا لما نُـكِبوا به من ضياع الأموال والديار.[١]

١- انظر «الصارم المسلول» (ص ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٩).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِيّـاتِ)**، و(**الربُّ**): هو المالِكُ، المدبِّرُ، الذي ربىَّ خلقَه بجميع النِّعم.

والْبَرِيَّاتِ: جمع بريَّةٍ، وهي الخليقة.

فالله ربُّ الجميع، من كافرٍ ومُطيع، وتفصيل ذلك أن تَعلمَ أنَّ **تربية الله لخلقه نوعان**: [١]

- **عامة**، تكون بتدبير شؤون العبد، وخَلقه، ورَزقه، وإيصال النِّعم إليه.
- **وخاصة**، لا تكون إلا لأوليائه وأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم.

ولهذا كثُرَ دعاءُ المؤمنين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة، كما منَّ الله عليهم بالتربية العامة.

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِيّـاتِ)**، إشارة لطيفة إلى أن الذي تَفَرَّدَ بالربوبية، ينبغي أن يُفرَدَ بالعبادة والإلهية، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خَلقَ هذا الكون ويتصرَّفُ فيه بقُدرته وحِكمته، هو الذي ينبغي للعبد أن يُظهِر له افتقارَه ومَسكنَتَهُ وخُضوعَه وخُشوعَه بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

١- انظر «تفسير السعدي» (ص ٢٧).

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا المُسَيْكينُ في مَجْموعِ حـالاتِي**)، وفي بعض النسخ: «أَنَا المِسْكِين»، وهذا غَلَطٌ، لأن الوزن لا يستقيم بذلك.

والمُسَيْكِين: تَصغير للفظ «الـمِسْكِين»، **وهذا -والله أعلم- لأمرين**:

- المبالغة في المسكنة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.
- وللضرورة الشعرية.

فيكون لفظ «**المُسَيْكينُ**» هو الأنسبُ معنًى ووزنًا.[١]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا المُسَيْكينُ في مَجْموعِ حـالاتِي**): أي في **جميع هيئاتي**: شدةً ورخاءً، أمنًا وخوفًا، عند فعل الطاعة وعند مقارفة المعصية، ففي كل هذه الحالات لا بد أن يُظهِرَ العبدُ مَسكنَته وافتقارَه لله جل وعلا، حتى لا تُطغيه نِعمة، ولا تُسخِطَه نِقمة، ولا يَغترَّ بطاعة، ولا يهلَكَ بمَعصية.

١- وقد استدرك علي شيخُنا عبد الله العنقري هذا بقوله: «**لم يتضح لي وجه كون (الـمُسَيْكينُ) ضرورة شعرية، مع مناسبته للوزن واللغة**». فأجبته -حفظه الله- بأنَّ الـمُعبَّر به غالبًا هو لفظ «الـمِسكين» في اللغة والشرع، واختيار شيخ الإسلام لتصغير لفظ «المِسكين» مقصودٌ منه لمراعاة الوزن بالأساس، ولهذا لم يستعمل التصغير في غير هذا الموضع من القصيدة. والله أعلم.

يقول ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «البلايا إذا تواترَت على العاقل أهلكَت عقلَه، والرخاءُ إذا تواتَر عليه أَبطَرَه».

وكَم من إنسانٍ كان على حالٍ سويٍّ، فحلَّت به نعمةٌ أطغته فهَلَك، وفي مثل هذا قال الله جل وعلا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[العلق: ٦].

وكَم من إنسانٍ كان على حالٍ سويٍّ، فنَزلت به مصيبة أضعَفتهُ فهَلَك، وفي مثل هذا قال الله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت: ١٠]، أي فلما أصابه بلاء من الناس جزع ولم يصبر، فافتتن في دينه وارتد عن إيمانه، والعياذ بالله.

وما أجمل هذا الدعاء الذي ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَطلَع كتابه «الوابل الصيب»[٢]، حيث قال: «... **وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شَكَر،**

١- «روضة العقلاء» (ص ٢١).

٢- وعنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «القواعد الأربع»، وقد أشرت إلى ذلك في أول كتابي: «الشرح الميسر المفيد على أربع قواعد في التوحيد».

وإذا ابتُلي صَبَرَ، وإذا أذنب استغفَر»، ثم قال: «**فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد**، وعلامة فلاحِه في دنياه وأُخراه، ولا يَنفكُّ عبدٌ عنها أبداً، **فإن العبد دائمُ التَّقلُّبِ بين هذه الأطباق الثلاث**»، ثم فَصَّلها تفصيلا حسنًا كعادته عليه رحمة الله، **وخلاصة ذلك أن يُقال إنَّ العبدَ يتنقَّلُ بين:**

- نِعَمٍ من الله تعالى تترادف عليه، فقَيدُها الشكر.
- ومِحَنٍ من الله تعالى يبتليه بها، ففَرضُه فيها الصَّبر.[١]
- وذنوبٍ ابتُلِيَ بها، فرضُه فيها أن يتوبَ ويستغفر.

ولهذا لَمَّا ذكر شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] صفاتِ أولياءِ الله الـمُتَّقينَ، قال: «**هم الَّذين فَعَلوا الـمَأمورَ، وتَركوا المَحظُور، وصَبَروا على المَقدور، فأحَبَّهُم وأحَبُّوه، ورضِيَ عنهُم ورَضُوا عنه**».

فالعبدُ ينبغي له أن يكون مُتَمَسكِنًا لله جَلَّجَلَالُهُ **في مـجموع حالاته، متواضعًا له في كلِّ أوقاته**، وهذه حال الأنبياء، ساداتِ الأولياء، قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص: ٢٤]، أي: إنِّـي مُفتَـقِرٌ للخَير الذي تسُوقه إليَّ وتُـيَسِّرُه لي بفضلِك، فسأل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربَّـه بفقرِ

١- انظر: «الوابل الصيب» (ص ٣)، وكتابي: «تسلية المؤمنين».

٢- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ١٠٩).

حاله، والسؤالُ بالـحال أَبلَغُ من السؤال بلِسان الـمَقال، فلَم يـزَلْ في هذه الحالة داعيًا ربَّـه مُـتَـمَلِّـقًا، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.[١]

وما أجملَ قولَ ابنِ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فصلٍ عَقَدَه في كتاب «الفوائد» - حول تواضُع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ فتحِ مكة-، قال فيه: «ففي قِمَّة النَّصر الذي لو كان لغيرِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلا في الأرض وأفسَدَ فيها، وفي تلك الحالِ التي عادَةُ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ فيها: أنْ يَمْلِكَها سرورُهَا، وفرَحُهَا بالنَّصرِ، والظَّفَرِ، والتَّأييدِ، ويَرْفَعُها إلى عَنَانِ السَّماء، ولكنه دخلَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذَقْنُهُ تَـمَسُّ قَرَبُوسَ سَرْجِهِ[٢] خُضوعًا وذُلًّا لمن ألبسهُ ثوب هذا العِزِّ الَّذي رَفَعت إليه فيه الخليقةُ رؤوسَها، ومَدَّت إليه المُلوك أعناقَها، فدخل مَكَّة مَالِكًا مؤيَّدًا منصورًا، قد لبِسَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثوبَ الانخفاض والانكسار، بين يدي المَلِك الجبَّار، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».[٣]

وهذه هي شِيَمُ العظماء، الذين لا تُطغِيهم نعمةٌ، ولا تُسخِطهم نقمةٌ، يشكُرونَ عند الرخاء، ويَصبِرون عند البلاء، إذا فعلوا طاعةً حمِدُوا الله عليها،

١- انظر «تفسير السعدي» (ص ٦١٤).

٢- القَرَبُوسُ: حِنْوُ السَّرْج، وهو قِسمُه المقوَّس المُرتفع مِن قُدَّام المَقعد، ومِن مؤخَّره. انظر «لسان العرب» (٦/ ١٧٢).

٣- انظر «الفوائد» (ص ٧٨)، ونحوه في «مدارج السالكين» (٢/ ١١٩).

وعلِموا أنها بتوفيقِ الله، وإذا ابتُلُوا بمعصية علِموا أنها من أنفسهم ومن الشيطان، وأنها من خِذلان الله لهم، فاستغفروا ربهم وأنابوا إليه، فهم ينتقلون بين مشاهد العبودية في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وهؤلاء هم الأحرى والأولى بأن يدخلوا جنَّاتٍ عرضُها السموات والأرض، لا ينقطع نعيمُها بحال من الأحوال، جزاءً على عبوديتهم التي لم تنقطع بحالٍ من الأحوال.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالمسكينُ في الحقيقة من استكان قلبُه لربه، وخشَع من خَشيته ومحبته، ولا يكون المسكينُ ممدوحًا بدون هذه الصفة، **فإن من لم يخشَع قلبُه مع فَقره وحاجتِه فهو جَبَّار...**

فالمؤمنُ يَستكِين قلبُه لربه ويَخشَع له ويتواضع، ويُظهِر مَسكنتَه وفاقتَه إليه في الشدة والرخاء، أما في حال الرضا فإظهارًا للشكر، وأما في حال الشدة فإظهارًا للذُّل والعُبودية والفاقَة والحاجة إلى كَشف الضُّر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:

١- «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ١٣٥)، وانظر له رسالة في الباب بعنوان «**الذل والانكسار للعزيز الجبار**» ضمن «مجموع الرسائل» (١/ ٢٧٥)، و«مشهد الذل والانكسار» في «مدارج السالكين» (١/ ٣١٨).

٧٦]، فذَمَّ من لا يَستكين لربه عند الشدة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخرُج عند الاستسقاء متواضعًا متخشعًا مُتَمَسكِنًا[١]».

٢- رواه أحمد (٢٠٣٩)، وأصحاب السنن، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٥٠٥).

معنى لفظ «الـمسكين» في حديث: «اللهُمَّ أحْيني مِسْكينًا»

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا المُسَيْكينُ في مَجْموعِ حالاتِي**): أي الخاشع المتواضع المُفتَقِرُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل حال، ويشهد لهذا المعنى قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ أحْيني مِسْكينًا، وتَوفَّني مِسْكينًا، واحْشُرْني في زُمْرَةِ الـمَساكِينِ**».[١]

ووَجْهُه -كما قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ-[٢]: «أنه لم يسأل [صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] حال المَسكنة التي يَرجِع معناها إلى القِلَّة، وإنما **سأل الـمَسكنة التي يَرجِع معناها إلى الإخبات والتواضع**[٣]، فكأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل الله تعالى أن لا يجعلَه من الجبَّارين المتكبِّرين، وأن لا يحشرَه في زُمرة الأغنياء الـمُترَفين».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «المساكين ضدُّ المتكبِّرين، وهم الخاشعون لله، المتواضعون لعَظَمته الذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض، سواء كانوا أغنياءَ أو فقراء».

١- رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١٢٦).

٢- «السنن الكبرى» (٧/ ١٩). وانظر «السلسلة الصحيحة» (١/ ٦١٩).

٣- انظر الكلام على منزلتي «الإخبات»، و«التواضع» في «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٦)، (٢/ ٦٨).

٤- «الفتاوى» (١١/ ١٣٠). وانظر جوابَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخصوص هذا الحديث روايةً ودِرايةً في «الفتاوى» (١٨/ ٣٢٦).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**الـمَسكَنةُ التي يحبُّها اللهُ مِن عبدِه ليست فَقرَ المال، بل مَسكَنةُ القلب**، وهي انكسارُه وذُلُّه وخُشوعُه وتواضُعه لله، وهذه الـمَسكَنةُ لا تُنافي الغِنى، ولا يُشترط لها الفقرُ، **فإنَّ انكسارَ القلب لله، ومَسكَنتَه لعظمتِه وجلالِه وكبريائِه وأسمائه وصفاتِه أفضلُ وأعلى مِن مَسكَنةِ عَدَمِ المال...**».

وضد الـمَسكنَة: التكبُّر والتجبُّر والعُلوُّ في الأرض، وهذا الذي تبرَّأ منه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[مريم: ٣٢].

وهذه الـمَسكنَةُ سرُّ سعادةِ الـمَرء وفلاحِه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فلا شيءَ أنفعُ للصادق من التحقق بالـمَسكَنة والفاقة والذُّل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يَصِحَّ له بَعدُ الإسلامُ حتى يَدَّعِيَ الشرفَ فيه».

١- «عِدَةُ الصابرين» (ص ٢٠٢).

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢).

أمثلة على تواضع الأنبياء ومن سار على طريقهم من الأولياء

وفي الحقيقة، لا يصل إلى هذه الـمَرتبة إلَّا من وفَّقه اللهُ من عباده الصادقين، الذين جَمَعوا بين حُسن العمل مع الخوف والخضوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.[١]

ومن تأمَّل حال الأنبياء، ومَن بعدهم من سادات الأولياء كالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وَجد عندهم مِن المَسكنَة والخُضوع والانكسار بين يدي الله ما يقف عنده العبدُ مُتَعَجِّبا، والناظرُ في سيرهم مُستَغربا، ولكن كما قيل: «من لم يشاهد جمال يوسف المحبوب، لم يدْرِ ما الذي أَلـمَّ بقلب يعقوب!».

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**إذا تَمَّ علمُ الإنسان، لم يَرَ لنفسِه عملًا، وإنما يرى إنعامَ المُوَفِّق لذلك العمل**».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وتأمل على الفُطَناء أحوالَهم في ذلك**:

فالملائكة الذين يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفترون، قالوا: «ما عبدناك حقَّ عبادتك».

والخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي ﴾[الشعراء: ٨٢]، وما

١- انظر كتابي: «نُصحُ المؤمِنين وتِبيَانُ مَنازِلِ السَّائِرين» (ص ٣٨-٤١).

٢- «صيد الخاطر» (ص ٢٨٤)، بتصرف يسير. ولابن القيم نحوه في «طريق الهجرتين» (ص ١٧١)، وقال: «وهذا هو مشهد الرُّسل...».

أدَلَّ بتَصَبُّرِه على النار، وتسليمِه الولدَ إلى الذبح.

ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما مِنكم مَن يُنجِيه عَملُه**»، قالوا: ولا أنت؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برَحْمَته**».[١]

وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «وهل أنا ومالي إلَّا لك يا رسولَ الله؟!».

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لو أن لي طِلَاعَ[٢] الأرض ذهبًا، لافتديتُ بها من هَول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر».

وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «ليتني إذا مِتُّ لا أُبعَث».

وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «ليتني كنت نسيًا مَنسيًا».

وهذا شأنُ العُقَلاء، فرضي الله عن الجميع». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهؤلاء هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فبالرَّغْم من أنهم قد بُشِّروا بجنَّاتِ النَّعيم وهُم في دار العمل، ولكنَّ خوفَهم من الله وإجلالَهم لعظمته وهَضمَهم لأنفسِهم جَعَلهم يَنسَونَ فضائلَهم ولا يكادون يُفكِّرون إلَّا فيما

١- رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**كلُّ من عبَد اللهَ: عبَده بفضله ورحمته، وكلُّ من عذَّبه اللهُ: عذَّبه بعدله وحكمته**، فأمَّا الحسنة: فأنعَم بها عليك، والسيئة: فابتلاك بها». انظر «مجموعة رسائل ومسائل متنوعة» (ص ٩١).

٢- أي: مِلْأَها.

قارَفُوا من الزَّلَل، فرضي الله عن تلك الأشباح، وقدس الله تلك الأرواح.

ولقد ضَرَبَ ناظمُ هذه الأبيات شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أَروَعَ الأمثلة في التواضُع**، فهو -مع ما كان عليه من العلم والعمل والجهاد- كان مُتواضِعًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حتى إنه كان كثيرًا ما يقول: «**ما لي شيء، ولا مِنِّي شيء، ولا فيَّ شيء**»، وكان إذا أُثنِيَ عليه في وجهه يقول: «**واللهِ إني إلى الآن أُجَدِّدُ إسلامي كُلَّ وقت، وما أَسلمتُ بَعدُ إسلامًا جيِّدًا**».[١]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسِك، ولا يكونَ لها منك شيء، بحيث تكونُ كلُّك لله**، وإذا كنت لنفسِك فثَمَّ مِلك واستغناءٌ مُنافٍ للفقر».

١- نقل هذا عنه تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٨٢)، ثم ساق هذه الأبيات التي نحن بصدد شرحها.

٢- «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢)، «منزلة الفقر».

ظلمُ العبدِ لنفسه

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنـــا الظَّلُّـــومُ لنَفْســي وهِــيَ ظــالِمَتي

والخَيــرُ إنْ يَأتِنــا مِــنْ عنــدِهِ ياتِــي

أنا الظَّلُومُ: بصيغة فَعُول مبالغةً في الفعل، كغاشم وغَشُوم.

قال ابن مالك في «الألفية»[١]:

فَعَّـــالٌ او مِفْعَـــالٌ او فَعُـــولُ في كَثْـــرَةٍ عَـــنْ فاعِـــلٍ بَـــديلُ

فيَســـتَحِقُّ مـــا لَـــهُ مِـــنْ عَمَـــلِ وفي فَعِيـــلٍ قَـــلَّ ذا وفَعِـــلِ

وعليه فـ«ظلوم» أي شديد الظلم لنفسي، **والظلم: وضع الشيء في غير موضعه**[٢]، وعكسه العدل والإنصاف.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**أَنَا الظَّلُومُ لنَفْسي**): أي أنا الذي أضع الأمورَ في غَيرِ مَـحَلِّها، فأتركُ الذي ينبغي، وأفعلُ الذي لا ينبغي.

والظلم -باعتبار تعلُّقه بالمظلوم- نوعان:

١- انظر «شرح ابن عقيل» (٣/ ١١١).

٢- «المصباح المنير» (ص ٢٠٦). وقد تكلَّمتُ على الظلم وعواقبه في الدنيا والآخرة في كتابي: «بُغية الناجي شرح وصية الباجي».

- **أولها**: ظلم في حقِّ النفس، وهو قسمان:
  - **الأول**: وهو أعظمُها، ظلم العبد نفسَه بالشرك.[١]
  - **والثاني**: ظلم العبد نفسَه بالمعاصي وسائر الذنوب.
- **وثانيها**: ظلم في حقِّ الناس، بالتعدِّي عليهم، وغَصبِهم حقوقَهم.

وفي الحديث، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الظُّلْمُ ثَلاثَةٌ، فظُلْمٌ لا يَغْفِرُهُ اللهُ، وظُلْمٌ يَغْفِرُهُ، وظُلْمٌ لا يَتْرُكُهُ، فأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ اللهُ: فالشِّرْكُ، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان: ١٣]**، وأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ اللهُ: فظُلْمُ الْعِبَادِ لأَنْفُسِهِمْ، فِيمَا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رَبِّهِمْ، وأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَتْرُكُهُ اللهُ: فظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، حَتَّى يَدِينَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ**».[٢]

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ولهذا، جميعُ الذنوب يكون الرجلُ فيها ظالمًا لنفسِه، والظلمُ خِلاف العدل، فلم يَعدِل على نفسه، بل ظلمها، فصلاحُ القلب في العدل، وفسادُه في الظلم، **وإذا ظلم العبدُ نفسَه فهو الظالم**

١- انظر «معركة التوحيد والشرك»، للمؤلف -غفر الله له-.

٢- رواه البزار (٦٤٩٣)، والطيالسي (٢٢٢٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٦١)، و«الصحيحة» (١٩٢٧).

٣- «الفتاوى» (١٠/ ٩٩).

وهو المظلوم، كذلك إذا عدَل فهو العادل والمَعدول عليه، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦] ».

الظلم مُكَدِّرٌ للتوحيد

والظلم بأنواعه مُكَدِّرٌ للتوحيد، مُنَغِّصٌ له، إذ لا يكون العبدُ مُحَقِّقًا للتوحيد حتى يُصَفِّـيَه من:

- الشرك،
- والبدع،
- وسائر الذنوب والمعاصي.

وهذه الثلاثة: هي العوائق التي تَعوقُ القلبَ في سيره إلى الله، وتَقطعُ عليه الطريق، وزَوالُـها يكون:[١]

- بتجريد التوحيد،
- وتحقيق السنة،
- وتصحيح التوبة.

١- انظر «الفوائد» لابن القيم (ص ١٨٨).

الحذر من كمائن النفس الأمارة بالسوء

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**وهيَ ظَالِـمَـتِـي**): أي أن نفسي الأمارةَ بالسوء ظالَمَةٌ لي، **لأنَّ النفوسَ بالشهوات آمِرَة، وعن الرُّشد زاجِرَة**[١]، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ**﴾[يوسف: ٥٣]، لأنَّ العبدَ يظلمُ نفسَه إذا تابعها في هواها، واسترسل في رضاها، ولم يكبِح لها جِماحا، ولم يغمِد لها سلاحا، فلم يهيِّئ لها أسباب الطاعات، ولم يغلق عليها منافذ الشهوات والشبهات، فهذا هو ظُلمه إياها، ومُسالَـمَتُه لهواها، فظَلَمَته كما ظلمَها، وأوبَقتهُ كما ضيَّعها.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**فإذا عَرف من نفسِه ما تُجِنُّ، وتصوَّر منها ما تُكِنُّ، ولم يُطاوِعها فيما تُحب إذا كان غَيًّا، ولا صرف عنها ما تَكره إذا كان رُشدا**، فقد مَلكها بعد أن كان في مِلكها، وغَلبها بعد أن كان في غَلَبتها».

١- «أدب الدنيا والدين» للماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٣٦٩).

٢- نفس المصدر (ص ٣٧١).

مَن حفظ اللهَ في الصِّغر حفِظه اللهُ في الكِبَر

والنفس كالبدن إذا لم تَرْعَهُ خار، وضَعُفَت قوَّتُه وانهار، حتى إذا احتجتَ إليه خانَك، ولو صُنتَـهُ لصانَك، ومن وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قولُه: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»[١]، ومن ذلك أن يحفظَك اللهُ في حال كِبَرِك وضَعفِ قواك، لِحفظك لـحُقوقه وحُدودِه أيامَ صِباك، فيُمتعك بالقوة والعقل والسمع والبصر، كما متَّعك بها حال الشباب والصِّغَر.

واعتبِر ذلك بحال أفضلِ الناس وهم الأنبياء عليهم السلام، فقد قال تعالى في حقِّ يوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] ، وقال عن ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصافات: ١٤٣-١٤٤]، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذَه ونجَّاه.[٢]

قال سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إذا كان الرجلُ دَعَّاءً في السرَّاء، فنزلت به ضرَّاءُ، فدعا الله تعالى، قالت الملائكة: صوتٌ معروف فشفعوا له، وإذا كان**

١- رواه أحمد (٢٧٦٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٠٢).

٢- «تفسير الطبري» (٢١/ ١٠٨).

ليس بدَعَّاءٍ في السَّرَّاء، فنَزلت به ضرَّاءُ، فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوتٌ ليس بمعروف، فلا يشفعون له».[١]

ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **خيرُ قُدوة، وأعظَمُ أُسوة،** لما قالت له زوجُه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أولَ ما نَزَل به الوحي -وكان قد خَشِيَ على نفسِه-: «**كَلَّا، واللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا**»[٢]، ثم ذكرَت مِن صفاتِه وأخلاقِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسابِقَته في الفَضل والبِر وما عليه من جميل الحال، ما استدَلَّت به -بكمال عقلها وسلامة فطرتها- على حُسن العاقبة والمآل، فإنَّ الأخلاقَ الفاضلةَ والشِّيَمَ الشريفةَ تُناسِب أشكالَها مِن كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تُناسِب الخِزيَ والخِذلان، فمَن ركَّبه اللهُ على أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامتُه وإتمامُ نعمتِه عليه، ومَن ركَّبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يُناسبها.[٣]

١- رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٤٨٠)، والبيهقي في الشعب (١١٠٠). وانظر «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٠٠).

٢- رواه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

٣- انظر «زاد المعاد» (٣/ ١٧)، و«كأس السلسبيل» للمؤلف (ص ١٥٥-١٥٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١]: «فإنه قد عُرِفَ من سُنة الله في عِباده وإكرامِه لأهل الخيرِ، وإهانتِه لأهل الشَرِّ، ما فيه عِبرةٌ لأولى الأبصار...».

وكان أبو الطيب الطبري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جاوز المائة سنة وهو مـُمَتَّـعٌ بعَقله وقُوَّته، فوَثَب يومًا مِن سفينة كان فيها إلى الأرض وَثبَـةً شديدةً، فعُوتِب على ذلك، فقال: «**هذه جوارحُ حفِظناها عن المعاصي في الصِّغَر، فحفِظها اللهُ علينا في الكِبَر**».[٢]

وعلى العكس من هذا، فمن لم يصُن أركانَه في الصِّغَر، ضيَّعه اللهُ في الكِبَر، ولهذا لما رأى الـجُنَـيدُ شيخًا يسألُ الناسَ، قال: «**إن هذا ضيَّع اللهَ في صِغَره، فضَيَّعه اللهُ في كِبَره**».[٣]

١- انظر «الصفدية» (١/ ٢٢٥، وما بعدها).

٢- انظر «صفة الصفوة» (١/ ٥٦٠).

٣- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٢٠)، و«جامع العلوم والحكم» (ص ٢٩٤) له أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ. **علَّق شيخنا عبد الله العنقري** -حفظه الله- **على هذا الأثر بقوله: «ليست على إطلاقها، فقد يَبتلي الله عبده بالشدة دون أن يقع منه تضييع، ولا يخفاك ما في بعض عبارات** =

وفي هذا يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وقد يُهانُ الشيخُ في كِبَرِه حتى تَرحمَه القلوب، ولا يَدري أن ذلك لإهمالِه حقَّ اللهِ تعالى في شبابه!** فمتى رأيت معاقبًا، فاعلم أنه لذنوبٍ».

=

الصوفية من المخالفة، مع أن ثبوت مثل هذا عن الجنيد مما يعسر الوصول إليه؛ لما علمت من عدم عنايتهم بضبط الأسانيد».

١- «صيد الخاطر» (ص ١١).

مَن ساسَ نفسَه سادَ ناسَه

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**العاجِزُ من عجَزَ عن سِياسة نفسِه**».

وقال بعض الحكماء: «**من ساسَ نفسَه سادَ ناسَه**».[١]

فمن ظلم نفسَه ظلمته، ومن عقَّها أهانته، ولهذا ينبغي للمسلم ألَّا يتركَ نفسَهُ غارقَةً في بحر الـهوى والشهوات، تائهَةً في أمواجِ الباطل والشبهات.

قال عَوْنُ بنُ عبدالله: «**إذا عصَتكَ نفسُك فيما كَرِهَتْ، فلا تطِعها فيما أَحَبَّتْ**»، وقال بعضُ البُلَغاء: «**من قَوِيَ على نَفْسِهِ تَناهَى في القُوَّة، ومن صَبرَ عن شهوتِه بالَغَ في المُرُوَّة**».[٢]

قال الشاعر:[٣]

لَـمْ أَرْضَ عَـنْ نَفْسـي مَـخافَةَ سُـخْطِهَا
ورِضَـا الفَتـى عَـنْ نَفْسِـهِ إغْضَـابُهَا
ولَـوْ أَنَّنِـي عَنْهَـا رَضِـيتُ لَقَصَّـرَتْ
عَمَّـا تَزِيـدُ بِمِثْلِـهِ آدَابُهَـا
وتَبَيَّـنَتْ آثَـارَ ذاكَ فَـأَكْثَرَتْ

١- انظر «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٧٠).

٢- نفس المصدر (ص ٣٧٢).

٣- نفس المصدر (ص ٣٧١).

عَـــذْلِي عَلَيْـــهِ فَطَـــالَ فيـــهِ عِتَابُهَـــا

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يُكرِمُ العَبدُ نفسَه بمثل إهانتِها، ولا يُعِزُّها بمثل ذُلِّها، ولا يُريحُها بمثل تَعبِها، كما قيل:

ســـأُتعِبُ نفســـي أو أُصـــادِفَ راحَـــةً

فـــإنَّ هَـــوانَ الـــنَّفسِ فـــي كَـــرَمِ الـــنَّفسِ

ولا يُشبِعُها بمثل جُوعِها، ولا يؤَمِّنُها بمثل خَوفِها، ولا يؤَنِّسُها بمثل وَحشَتِها مِن كل ما سوى فاطِرِها وبارِئِها، ولا يُحْيِيها بمثل إماتَتِها، كما قيل:

مـــــوتُ النُّفـــــوسِ حَياتُهـــــا

مَـــن شـــاءَ أَنْ يَحيَـــا يَمُـــوتُ

شرابُ الهوى حُلْوٌ، ولكنه يُورِث الشَّرَق...». إلخ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولهذا لما قيل لبعض العُبَّاد: إلى كم تتعب نفسك؟ فقال: **راحتَها أريد!** [٢]

وعن الشعبي قال: غُشِيَ على مَسْرُوق في يوم صائف وهو صائم، فقالت له ابنتُه: «أفطِر»، قال: «ما أَرَدْتِ بي؟»، قالت: «الرِّفقَ». قال: «**يا بُنيَّة، إنما أَطلُبُ الرِّفْقَ لنَفسي في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألفَ سنة**».[١]

١- «الفوائد» (ص ٨٥).

٢- نفس المصدر (ص ٥٤).

يقول العلامة عبد الصمد كنون رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا تعتقد أيها العاقلُ حصولَ الشفاء والبُرء من دائِك العَقِيم، ومرضِ قلبك الذي هو به مُقِيم، وأنت مقرٌّ نفسكَ على هَواها، ومساعدٌ لها في مُناها، بل حتى تَفطِمَها عن الشهوات، وتَقمَعَها عما تُرِيدُه من الهوى واللذات».

وهذا كلُّه يحتاج مُجاهدةً ورياضَةً للنفس، **وقد أجمعَ العُقلاء على أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنَّعِيم، وأنَّ مَن رافَق الراحةَ فارَق الراحة، وحَصَل على المَشَقَّة وقت الراحة في دار الراحة.**[٣]

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فـــاتعَبْ لِيَـــومِ مَعَـــادِكَ الأَدْنَـــى تَـــجِدْ

راحَـاتِـــهِ يَـــومَ المَـعَـــادِ الثَّـانـــي

=

١- «صفة الصفوة» (٢/ ١٦).

٢- «النسق الغالي والنفس العالي» (ص ١٩٣).

٣- «مدارج السالكين» (١/ ٥١٨).

ورياضةُ النفوس من أصعبِ ما يكون على الـمَرء، حتى قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**واعلَم أن رياضةَ الأنفُس أصعبُ من رياضة الأُسْد**، لأن الأُسْدَ إذا سُجِنت في البيوت التي يتخذ لها الـمُلوك، أُمِنَ شرُّها، والنفسُ إن سُجِنت لم يُؤمَن شرُّها».

وما أجملَ قولَ ابنِ الـمبارَك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيـــتُ الـــذُّنوبَ تُمِيـــتُ القلـــوبَ

وقـــد يـــورِثُ الـــذُّلَّ إدمانُهـــا

وتَـــركُ الـــذُّنوبِ حيـــاةُ القلـــوبِ

وخَيـــرٌ لنفْسِـــكَ عِصْـــيانُها

وتأمل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦] ، وقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[البلد: ٤]، مُكابِدًا مَضايقَ الدنيا وشدائدَ الآخرة، لأنَّ الكَبَدَ هو التَّعَبُ والشِّدَّةُ.

١- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص ٥٣).

وما أحسنَ قولَ أبي العباس الهلالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نصيحته»[١]:

ولا تَظُنَّ البُرْءَ مِن دَواكَ
إلَّا بفَطْمِ النَّفْسِ عن هَواكَ
فاجهَدْ أُخَيَّ واجتهِدْ وجاهِدْ
عسَى بفَضلِ اللهِ أن تُشاهِدْ
واستنْجِدَنْ مولاكَ في جَميعِ ما
تَرُومُهُ فلَنْ يَزالَ مُنْعِمَا
فما به تطلُبُهُ تيسَّرَا
وما بنفْسِكَ فقَدْ تعَسَّرَا
واحْتَلْ على نَفْسِكَ بالتدَرِيجِ
فإنَّهُ أَذْهَبُ للتحْرِيجِ
وخالِفَنَّها ولا تُطِعْهَا
وارْعَ الوَدائِعَ ولا تُضِعْهَا

١- (ص ٧٨-٨٠). وقد شرحتُ هذه النصيحة العظيمة في ١١ مجلسًا، منشورة في قناتي على «اليوتيوب».

ولنعُد الآن لشرح أبيات شيخ الإسلام، وقد وقفنا عند قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنـــا الظَّلُـــومُ لنَفْســي وهِــيَ ظــالِمَتي

والخَيــرُ إنْ يَأتِنــا مِــنْ عنــدِهِ ياتِــي

أي: أنَّ الخَيرَ إنما يأتي من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتوفيقه ومَنِّه وفَضله، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣] ، وقال حول نعمة الهداية والإيمان: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[الحجرات: ١٧]، وقال سبحانه حول بعثة نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران: ١٦٤]، ... والآيات في امتنان الله على خَلقه بالخير كثيرة.

مشاهدة منة الله في كل الأحوال

يقول شيخ الإسلام الـهَروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**العارِفُ يسِير إلى الله بين مشاهدة الـمِنَّة ومُطالَعة عَيب النفس والعمل**».

وقد جمَع بينهما النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث «سيد الاستغفار»، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[٢]، فيُـقِـرُّ العبدُ بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها، كما قال بعضُهم: «**أَطَعْتُك بِفَضْلِك وَالْمِنَّةُ لَك، وَعَصَيْتُك بِعِلْمِك وَالْحُجَّةُ لَك، فَأَسْأَلُك بِوُجُوبِ حُجَّتِك عَلَيَّ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي إِلَّا غَفَرْتَ لِي**».[٣]

ومشاهدةُ الـمِنَّة توجِب للعَبدِ المحبةَ والحمدَ والشكرَ لوَلِيِّ النِّعَم والإحسان، ومُطالعةُ عَيبِ النفسِ والعملِ **توجِب له الذُّلَّ والانكسارَ والافتقارَ والتوبةَ في كلِّ وقت**، وأن لا يرى نَفسَه إلَّا مُفْلِسًا، وأقربُ بابٍ دخل منه العبدُ على الله تعالى هو الإفلاسُ، فلا يرى لنفسِه حالًا ولا مَقامًا

١- انظر «مدارج السالكين» (١/ ١٦٤)، و«الوابل الصيب» (ص ٥).

٢- رواه البخاري (٦٣٠٦).

٣- «الفتاوى» (١١/ ٣٠).

ولا سببًا يَتعلَّقُ به، ولا وسيلةً منه يمُنُّ بها، بل يدخُل على الله تعالى من بابِ الافتقار الصِّرف، والإفْلاسِ الـمَحْض، دُخولَ من كَسَر الفقرُ والـمَسكنةُ قلبَه حتى وصلَت تلك الكَسرةُ إلى سُوَيدائه فانصدَع، وشَمِلَته الكَسرة من كلِّ جِهاتِه، وشَهِد ضَرورتَه إلى ربه ﷻ، وكمالَ فاقتِه وفَقرِه إليه، وأنَّ في كلِّ ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِه الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً، وضَرورةً كاملةً إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إنْ تخلَّى عنه طَرفَة عَينٍ هَلَك وخَسِر خَسارةً لا تُجبَر، إلَّا أن يَعودَ الله تعالى عليه ويتداركَه برحمته.[١]

أمورٌ إذا استحضرها العبدُ احتقر عملَه

ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ **الذي يمنعُ العاقلَ أن يرى لنفسه عملًا، أو يُعجَبَ به، عدَّةُ أشياء**: منها[٢]:

- أنه وُفِّقَ لذلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات: ٧].
- **ومنها**: أنه إذا قِيس بالنِّعَم، لم يَـفِ بمِعشار عشرها.

١- «الوابل الصيب» (ص ٥، بتصرف).

٢- «صيد الخاطر» (ص ٢٨٤). وانظر «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٢)، ، لما تكلم ابن القيم عن آفات «منزلة الإخلاص».

- **ومنها**: أنه إذا لُوحِظَت عَظَمةُ الـمخدوم، احتقَر كلَّ عملٍ وتعبُّدٍ، هذا إذا سَلِمَ من شائبة، وخَلُصَ من غفلة. فأما والغفلاتُ تُـحِيطُ به، فينبغي أن يُغَلِّبَ الـحَذَرَ من رَدِّه، ويخافَ العِتابَ على التقصير فيه، فيشتغلَ عن النظر إليه.

النفع والضر بيد الله وحده

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لا أسْـــتطيعُ لِنَفْســـي جَلْـــبَ مَنْفَعَـــةٍ

ولا عَـنِ النّـفْسِ لـي دَفْـعُ المَضَـرَّاتِ

فإنَّ العبدَ لا يملِكُ جَلبَ النفعِ لنفسِه ولا دفعَ الضُّر عنها، فإنَّ الكلَّ بِيَدِ الله جل في عُلاه، وتقدَّس في عالي سَماه، وقد دلَّ على تفرُّدِ الله بالـمَنع والعطاء آياتٌ كثيرةٌ من كتاب الله، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس: ١٠٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[فاطر: ٢]...[١]

١- ومن الأمثال المشهورة والمُنكَرة عندنا في «تونس»، قول العامة: «هذا رجلٌ لا يَرحَم، ولا يترُك رحمةَ ربِّي تنزِل»!؟. وهذا من أعظم الباطل، فإن رحمةَ الله لا مُمسِكَ لها، يُنزلها سبحانه متى شاء، كيف شاء، وعلى من شاء.

=

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المخلوق ليس عنده للعبد نفعٌ ولا ضَرَرٌ، ولا عطاءٌ ولا منعٌ، ولا هُدًى ولا ضلال، ولا نَصرٌ ولا خِذلان، ولا خَفضٌ ولا رَفعٌ، ولا عِزٌّ ولا ذُلٌّ، بل ربُّه هو الذي خلَقه ورزَقه، وبصَّره وهَداه،

=

ولو كانت العبارة هكذا: «هذا رجل لا يَرحم، ولا يُحب رحمةَ ربي تنزل» لكانت سليمةً، فإنَّ الحسُود لا يحب الخيرَ للناس!

وقد يُراد بهذا المثل ذمُّ هذا الرجل الذي بسبب كثرةِ ذنوبه وسوءِ حاله دُفِع أو رُفِع عن الناس الرزق والمطر وغير ذلك... وكل هذه الأشياء راجعة إلى رحمة الله تعالى. فيكون قصدهم: هذا الرجل شؤم على نفسه وعلى غيره، والعياذ بالله!!

وانظر كتاب «رحمة الرحمن الرحيم» لحمد العثمان (ص ١٤٠).

وقد بدأت -بفضل الله- جمعَ شيءٍ من «الأمثال التونسية التي خالفت الشرع»، مع التعليق عليها، وبيان سُبل تصحيحها -إن أمكن ذلك-، فإن العبد مُحاسَب على ما يقول، وكم من كلمةٍ خرجت من اللِّسان هلَكَ بها إنسان، حتى ذكر الماوردي في «أدب الدنيا والدين ص ٤٤٥» أن من آداب الكلام: «**أن يجتنب أمثالَ العامة والغوغاء، ويتخصَّص بأمثال العلماء والأدباء...**» إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا، وإنَّ في أمثالنا الشعبية حِكَمًا كثيرة، ولفتاتٍ تربويةً بالإذاعة جَدِيرة، يسَّر الله جمعها والتعليقَ عليها بمنِّه ولُطفه وتوفيقه. آمين.

١- انظر «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٧).

وأسبَغ عليه نِعمَه، فإذا مسَّه اللهُ بضُرٍّ فلا يكشِفُه عنه غيرُه، وإذا أصابه بنِعمةٍ لم يرفَعها عنه سِواه، وأما العَبدُ فلا ينفعُه ولا يضرُّه إلَّا بإذن الله».

قال بعضهم: [١]

مـــا قَـــدَّرَ اللهُ لـــي لابُـــدَّ يُـــدْرِكُنِي

مَـــن ذا الَّـــذِي يَـــدفَعُ المَقْـــدورَ بالحَـــذَرِ

اللهُ أَوْلـــــى بِنَـــــا مِنَّـــــا بأَنْفُسِـــــنَا

إنْ نحـــــنُ إلَّا مَماليـــــكٌ لِـــــمُقْتَدِرِ

وفي الدعاء المعروف: «**اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»[٢]، وفي وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قولُه: «**واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وجَفَّت الصُّحُفُ**»[٣].

١- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس»، الرسائل (٢/ ٧٢).

٢- رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٤٧١).

٣- تقدم تخريجه.

قال الشاعر:[١]

دَبِّـــرْ فلَـــيسَ بـــمُغْنٍ عَنـــكَ تَـــدبِيرُ

ولَـــيسَ يَعْـــدُوكَ بالتَّـــدبِيرِ تَقـــدِيرُ

إنَّ الأُمُـــــورَ لَهـــــا رَبٌّ يُـــــدَبِّرُها

فَمـــا قَضـــى الـــرَّبُّ ســـاقَتْهُ المَقـــادِيرُ

ومعرفةُ العَبدِ واستيقانُه بهذا الأصل -وهو أن الله هو المانع المعطي، والنافع الضار-، يوجِبُ له توحيدَ الله وإفرادَه بالاستعانة والتضرُّع والعبادة، ولهذا ذمَّ اللهُ من يعبُد ما لا ينفَعُ ولا يضُرُّ ولا يُغْنِي عن عابدِه شيئًا[٢]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد: ١٦]، واحتجَّ بهذا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ على أبيه لما قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٤٢].

١- «نور الاقتباس»، الرسائل (٢/ ٧٢).

٢- انظر نفس المصدر (٢/ ٦٩).

ولاية الله لعبده: عامة وخاصة

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

ولـــيْسَ لـــي دُونَـــهُ مَـــوْلىً يُدَبِّرُنـــي

ولا شَـــفيعٌ إذا حاطَـــتْ خَطيئـــاتِـــي

إلَّا بـــإذنٍ مِـــنَ الـــرّحْمنِ خالِقِنـــا

إلـى الشَّـفيعِ كَمـا قـدْ جـا في الايـــاتِ

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولـــيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلىً يُدَبِّـرُنـي**): أي ليس للعبد مولى يُدَبر أمرَه سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن أسماء الله تعالى «**الـمَوْلَى**» الذي يتولَّى عباده، **وهذه الولاية تنقسم إلى:**[1]

- ولايةٍ من العبد لله، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[المائدة: ٥٦].

١- انظر «شرح النونية» للهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٦٦٩)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٦٥)، و«القول المفيد» لابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ١١، ٦٦)، و«النهج الأسمى» للنجدي (٢/ ٤٦).

- وولايةٍ من الله للعبد، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[البقرة: ٢٥٧]، **وهي قسمان**: عامة، وخاصة.

فالولاية العامة: هي الولاية على العباد بالملك والتدبير والتصريف، **وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميعَ الخلق**، فاللهُ هو الذي يتولى عبادَه بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام: ٦٢].

والولاية الخاصة: أن يتولى اللهُ العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته ونَصره وتأييده، **وهذه خاصة بالمؤمنين**، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[محمد: ١١]، ولما قال أبو سُفيان بعد «معركة أُحُد»: «لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ»، أَمَر النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابَة أن يُجيبوه بقولهم:

«**اللهُ مَوْلانَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**»[١]، والمقصود هنا الولاية الخاصة، وهي أغلب ما يُطلق في نصوص الوحيين.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي**): يُحمَل -والله أعلم- على الولاية العامة والخاصة، إذ يدخُل فيه الخَلق والتدبير والإحاطة، وهذا من الولاية العامة، وكذلك النصر والإعانة والتوفيق، وهذا من الولاية الخاصة.

١- رواه البخاري (٣٠٣٩).

مباحث حول الشفاعة وشروطها

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

.....

ولا شَـــفيعٌ إذا حاطَـــتْ خَطيئـــاتِـــي

إلَّا بـــإذنٍ مِـــنَ الـــرّحْمنِ خالِقِنـَـــا

إلـى الشَّـفيعِ كَمـا قـدْ جـا في الايـــاتِ

وفي هذين البيتين، نفى شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشفاعةَ نفيًا عاما بقوله: (**ولا شَفيعٌ إذا حاطَتْ خَطِيئاتِي**).

ومعنى (**شَفيع**): اسم فاعل من الشفاعة، وهو المتوسِّطُ عند الله لـجَلب خيرٍ أو دفعِ ضُرٍّ.[1]

ومعنى (**إذا حاطَتْ خَطِيئاتِي**): أي اجتمعت علي وأثقلتني أوزارها، فإنَّ إحاطة الذنوب هي الموت عليها قبل الإنابة والتوبة منها، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ

١- انظر كتابي: «عدة الباحث فيما تعلق باليوم الآخر من المباحث» (ص ١١٦-١٣٦) من الطبعة الثانية.

مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٨١].(١)

ثم أَثبتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشفاعةَ بشرطها في قوله: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمنِ**)، و«**الرحمن**»: اسم من أسماء الله تعالى التي لا يُسَمَّى بها غيرُه سبحانه، ومعناه: ذو الرحمة الواسعة. **والرحمة**: اسم جامع لكل خير، كما أنَّ العذاب اسم جامع لكل شر.(٢)

وقوله: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمنِ**): استثناءٌ من قوله (**ولا شَفيعٌ**)، والاستثناء: وهو عبارة عن إخراج ما لولاه لدخل في الكلام، ويكون بـ(إِلَّا) ونحوها.

وقد جاءت النصوص بنفي الشفاعة تارةً، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨]، وجاءت بإثباتها تارةً أخرى، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

١- انظر «تفسير الطبري» (٢/ ٢٨٤).

٢- انظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٢).

وعليه، فالشفاعة نوعان: [١]

- **شفاعةٌ مَنفِيَّة**، لم تتحقَق شروطُها، كالتي أثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة وضُلَّالها، وهي من الشرك.
- **وشفاعةٌ مُثبَتة**، تحققَت شروطُها، كالتي أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين.

شروط الشفاعة

وشروط الشفاعة ثلاثة:

❶ **الرضا عن الشافع**، فإنَّ تمكينَ الشافع من الشفاعة تكريم له وتشريف، والله لا يُكرم إلا من رضي قولَه وعملَه.

❷ **والرضا عن المشفوع له**، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[النجم: ٢٦]، وأعظم الأسباب التي تنال بها الشفاعة هو تجريد التوحيد، ففي «صحيح البخاري»[٢] أنَّ

١- انظر «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٢)، ومواضع أخرى كثيرة، بسَطَ فيها ابن تيمية هذا الباب، فجاء بالحق والـهُدى، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- (٩٩).

النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**».[١]

❸ **والإذن بالشفاعة**، لقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[يونس: ٣].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «**فهذه ثلاثة أصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها**، لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلَّا لمن رضي قولَه وعملَه، ولا يرضى من القول والعمل إلَّا توحيدَه، واتِّباعَ رسولِه، فاللهُ تعالى لا يغفِرُ شِركَ العادلين به غيرَه، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[الأنعام: ١]».

١- قال العلامة مبارك الميلي رَحِمَهُٱللَّهُ في «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٣٣١): «أيها الراجي لنيل الشفاعة-حقّق اللهُ رجاءك-! **لا تجعل الرجاء وحده طريقتك إليها، ولا عُمدتك لاستحقاقها، فتكونَ من المغترِّين، ولِحال المشركين من المشبِهين، ولكن اعمَد إلى قلبك؛ فاعمُره بالإيمان الخالص من نزَعات الوثنية ونزَغات إبليس...**».

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٢٥٦)، و«الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦١).

والعبدُ إذا أحاطت به خطاياه مِن كلِّ جانبٍ فلن يُنْجِيَه إلَّا ربُّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن أسباب النجاة يوم القيامة: الشفاعة، وهي مما اتَّفَق عليه الصحابةُ والتابعون خلافًا للوعيدية من المعتزلة والخوارج، ومن شروطها الإذن، ولهذا قال: (**إلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا**).

وهذا الإذن يكون (**إلى الشَّفيعِ**)، الذي رَضي اللهُ قولَه وفِعله من صالحي عباد الله.

وبَسطُ الكلام على الشفاعات وأنواعها، والردِّ على مُنكِريها، والغُلاةِ فيها، في غير هذا الموضع.

وفي قول شيخ الإسلام: (**إلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ**): إشارة لطيفةٌ إلى سِعَة رحمةِ الله جل وعلا، **فإنَّ إذنَه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **بالشفاعة فيه**:

- **رحمةٌ بالمشفوع له**، إذ بالشفاعة تُغفر السيئات، وتُرفع الدرجات.
- **ورحمةٌ بالشفيع**، الذي أكرمه الله بالشفاعة إظهارًا لفضله، وإعلاءً لمنزلته بين العالَـمِين.

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**خَالِقِنَا**): إشارَة إلى أنَّ اللهَ الذي خلَق كلَّ شيء، لا يجبَ أن يَتقدَّمَ أحدٌ من خَلقِه بين يديه إلَّا بإذنه سُبحانه، ولذلك جُعل الإذنُ بالشفاعة شرطًا لنُفوذها، خلافًا لما كان يعتقده المشركون في آلهتهم التي كانوا يرجُون شفاعتَها في الدنيا، وقد أبطل اللهُ ذلك في كتابه، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا

مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣ – ٤٤]، وقال صاحب «يس»: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾[يس: ٢٢ – ٢٥].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وهذا كلُّه يُبيِّن أن الأمرَ كلَّه لله، هو الذي يُكرِم الشفيعَ بالإذن له في الشفاعة، والشفيعُ لا يشفع إلَّا فيمن يأذن اللهُ له،** ثم يُحِدُّ للشفيع حَدًّا فيدخلُهم الجنة، فالأمرُ بمشيئته وقُدرته واختياره.

وأَوجَهُ الشفعاء وأفضلُهم هو عنده الذي فضَّله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه».

وقول شيخ الإسلام: (**كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الايَاتِ**)، بالتخفيف للضرورة الشعرية، والمقصود أنَّ الإذنَ بالشفاعة جاء في العديد من الآيات القرآنية، قد مرَّ بعضُها عند الكلام على شروط الشفاعة.

١- انظر «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٥)، و«رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٣١٧).

استغناء الله عن الخلق، وافتقارهم إلى فضله

بعد الكلام على الشفاعة، وأنها لا تقع إلَّا بإذن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولسْــتُ أَمْلِــكُ شــيئًا دُونَــهُ أبَــــدًا

ولا شَــــريكٌ أنـــا في بَعْــضِ ذَرَّاتِـــي

ولا ظَهيــرٌ لَــهُ كَــيْ يَسْــتَعينَ بِــــهِ

كمــا يكــونُ لأرْبــابِ الوِلايــاتِ

وهذان البيتان اشتملا على أمورٍ عظيمة، ففي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولسْتُ أَمْلِكُ شيئًا دُونَهُ أبـدًا**): أنَّ العبدَ لا يملك من دون الله جل وعلا شيئًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[الجن: ٢١ – ٢٢]، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ – على علو مكانته عند ربه– لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[الأنعام: ٥٠]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨]، فالعبدُ لا يملك شيئًا

من دون الله جل وعلا، إنما هو محضُ تفضُّلٍ منه سبحانه، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وكلمة (شيئًا) في قوله: (**ولسْتُ أَمْلِكُ شيئًا دُونَهُ**) نكِرَةٌ في سياق النفي فتُفيد العُموم، أي تعُمُّ أيَّ شيءٍ ولو كان ذرَّةً.

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولا شَريكٌ أنـا في بَعْضِ ذَرَّاتِ**): أنَّ العبدَ ليس شريكا لله في شيء البتَّة، ولو في بعض الذرات.

والذَّرُّ عند العرب صِغار النَّمل[١]، وهو أصغر ما يمُثِّـل به العربُ حَجمًا، والمقصود -هنا- أنَّ العبدَ لا يملك شيئًا، ولا يشارك اللهَ سبحانه في ملك شيء، فالكل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ٦٨].

فالملك مع الله مُتَعذِّرٌ استقلالًا، ولا على سبيل الشركة، ولا يمكن أن يُعينَ اللهَ تعالى أحدٌ في مُلكه، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولا ظَهيرٌ لَـهُ كَيْ يَسْـتَعينَ**

١- «القاموس المحيط» (ص ٣٩٦). وانظر «تفسير القرطبي» (٥/ ١٩٥).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التحرير والتنوير» (١١/ ٢١٤): «والذرَّة: النملة الصغيرة، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبار دقيق جدا... وذكرت الذرة مبالغة في الصِّغَر والدِقَّة».

به)، والظهير هو المُعين والوزير، وقوله: (كَيْ يَسْتَعينَ به)، أي ليطلبَ منه العَون، فاللهُ هو المتفرِّد بالربوبية والألوهية، وله الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾[فاطر: ٤٤]، فهو الصَّمَد الذي تَصمُد إليه الخلائقُ في حوائجها، وهو الغنيُّ الذي استغنى عن مخلوقاتِه، وبهَرَت عظمتُه من تأمَّل آياتِه، فالكلُّ إليه فقير، له الملك وله والحمد وهو على كل شيء قدير، ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾[فاطر: ١٣].

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولسْـــتُ أَمْلِـــكُ شـــيئًا دُونَـــهُ أبَـــــداً

ولا شَـــريكٌ أنـــا في بَعْـــضِ ذَرَّاتِـــي

ولا ظَهيـــرٌ لَـــهُ كَـــيْ يَسْـــتَعينَ بِـــــهِ

.....

إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢]، فقد تَهدَّد سبحانه مَن دعا شيئا مِن دون الله، وبيَّن أنهم لا ملك لهم مع الله، ولا شركا في ملكه، وأنه ليس له عَون ولا ظهير من المخلوقين، فقطع تعلُّقَ القلوب بالمخلوقات: رغبةً ورهبةً وعبادةً واستعانةً، ولم يبق إلَّا الشفاعةُ وهي حقٌّ، فبيَّن سبحانه أنها لا تكون إلَّا بإذنه، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].[١]

فتأمل هذه الآية -نوَّر اللهُ بصيرتَك بالتوحيد-، وكيف حسَمَت مادَّةَ الإشراك والتنديد، فلم تُبقِ لأهله متمَسَّكا به يتمسكون، وبرهانًا عليه يعتمدون، بل اقتلَعَت أصولَ الشرك من الجذور، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ

١- «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤)، بتصرف.

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالمشركُ إنما يتَّخِذ معبودَه لما يعتقد أنه يحصُل له به من النفع، **والنفع لا يكونُ إلَّا ممن فيه خصلةٌ من هذه الأربع:**

1. إما مالكٌ لما يريده عباده منه.
2. فإن لم يكن مالكًا، كان شريكًا للمالك.
3. فإن لم يكن شريكًا له، كان مُعِينًا له وظهيرا.
4. فإن لم يكن مُعِينًا ولا ظهيرًا، كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتبَ الأربعَ نفيًا مترتِّبًا، متنقِّلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبتَ شفاعةً لا نصيبَ فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا ونجاةً، وتجريدًا للتوحيد، وقَطعًا لأصول الشرك ومَوادِّه لمن عَقِلها، والقرآنُ مملوءٌ من أمثالها ونظائرها، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم

١- «مدارج السالكين» (١/ ٢٥٦)، و«الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦١).

قد خَلَوْا من قبل ولم يُعَـقِّبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن».

الرد على شبهة للمشركين في تسوية الخالق بالمخلوقين

ولنَعُدْ إلى قول الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولسْــتُ أَمْلِــكُ شــيئًا دُونَــهُ أبَــــداً

ولا شَــــريكٌ أنـــا في بَعْـــضِ ذَرَّاتِـــي

ولا ظَهيــرٌ لَــهُ كَــيْ يَسْــتَعينَ بِــــهِ

كمــا يكــونُ لأرْبــابِ الوِلايــاتِ

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الوِلَايَاتِ**): والوَلايةُ بالفتح هي المحبة والنُّصرة، والوِلايةُ: بالكَسر هي الإمارَة[1]، وجمعُها: وِلايات.

والمقصود بهم هنا أصحاب الجاه كالملوك والأمراء والرؤساء وغير ذلك، ممن شبَّه المُشركون اللهَ بهم، فشبَّهوا المخلوقَ بالخالق، وجعلوا لله أندادا، فجاؤوا ظلمًا وزُورا، وكانوا قومًا بورا.

وإن مما أورد المشركين وأهلَ الباطل الموارِدَ: أنهم شبَّهوا الخالق بالمخلوق، فزعموا بجهلهم أنَّ الله لا يُفردُ بالعبادة إلا أن يُتقرَّب إليه بأوليائه، الذين لهم عند الله جاه، واستدلوا على ذلك –زورًا وتلبيسًا– بأن الملوكَ لا

١- «القاموس المحيط» (ص ١٣٤٤). وانظر «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ١٦٨).

يُدخل عليهم مباشرة، إنما يُبَلَّغون حوائج الرعية عن طريقة الحاشية والوزراء، ولا يستجيبون إلَّا إذا شفع لديهم الشفعاء!!؟

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصوِّرون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواصُّ الله، **فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقربَ إلى الملوك من غيرهم**، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدُهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبةً ورهبةً، فأنكر الله هذه الشفاعة...».

وقد ذكر اللهُ تعالى هذا عنهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، قال قتادة والسدي وغيرهما: «أي ليشفعوا لنا، ويقرِّبُونا عنده منزلة».

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وهذه الشبهة هي التي اعتمدَها المشركون في قديمِ الدَّهر وحديثِه، وجاءتهم الرسلُ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين،

١- «الفتاوى» (١/ ١٥٠).

٢- «التفسير» (٧/ ٦٣).

بردِّها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأنَّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسِهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ومِن جهل المشرك اعتقادُه أن من اتخذه وَلِـيًّا أو شفيعا أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواصُّ الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، **ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحدٌ إلَّا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله ...**».

قلت: وهذا -لعَمري- في القياس شنيع، نقلًا وعقلًا وفِطرةً، إذ كيف يُسَوِّي هؤلاء الجاهلون بين ربِّ الأرباب الذي ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾[سبأ: ٣]، والذي ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[آل عمران: ٥]، وبين الذين لا يستطيعون أن ﴿يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾[الحج: ٧٣]؟!، ولكنَّ المشركين ما ﴿قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧].

١- «مدارج السالكين» (١/ ٢٥٥).

وقد بيَّن أهلُ العلم فسادَ هذا القياس، ودحَضُوا شُبَه الذين ساوَوا بين الملوك وبين ربِّ الناس، **وذلك أنَّ الملوكَ إنَّما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رَعاياهم:**[١]

❶ **لقصور عِلمهم، وضَعف اطِّلاعهم**، فهم محتاجون لمن يُعلِمهم بأحوالهم، ويخبرهم بحاجاتهم، والله سبحانه غنيٌّ عن الـخَلق، يعلَم السرَّ وأخفى، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، يسمع ضجيجَ الأصوات باختلاف اللغات على تَفَنُّن الحاجات، لا يشغَله سمعٌ عن سمع، ولا تُغلِطه كثرة المسائل، ولا يتبرَّم[٢] بإلحاح المُلحِّين، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❷ **وإمَّا لعَجْزِهم ونَقص قُدرتهم**، فلا يستطيعون القيامَ بحقوق الرعية إلَّا بأنصارٍ وأعوان، واللهُ سبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذُّلِّ، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ

١- جمعت هذه الفروق من كلام متفرق لأهل العلم. انظر «الفتاوى» (١/ ١٢٦، وما بعدها)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢/ ٤٦١)، و«تفسير ابن سعدي» (ص ٨٤٤)، و«رسالة الشرك ومظاهره» للميلي (ص ٣٣٤)، و«شرح النونية» (٢/ ٦٦٩) للهراس، و«القول المفيد» لابن عثيمين (١/ ١٨٨)... رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعا.

٢- أي: لا يَسأم ولا يَضجَر.

وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[الإسراء: ١١١]، فكلُّ ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كلِّ ما سواه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❸ **وإمَّا لأنهم قد لا يكون في قلوبهم رحمةٌ لرعاياهم**، فيحتاجون من يُعطِفهم عليهم ويسترحمهم لهم، والله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيء ومليكُه، وهو أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، وكلُّ الأشياء إنَّما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويفعل ما يفعل حكمةً ورحمةً، لا رغبةً ورهبةً، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[يونس: ١٨].

❹ **وإمَّا لخوفهم من الشُّفعاء والوزراء**، فيقضُون حوائجَ من توسَّطُوا لهم مراعاةً لهم، ومُداراةً لخواطرهم، فهم يرغَبون في إرضاء أعيانِ دولتهم، ويرهَبون إسخاطَهم، والله سبحانه لا تنفعه طاعةُ الطائعين، ولا تضرُّه معصيةُ العاصين، وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[يونس: ٦٥ – ٦٦].

❺ **وإمَّا لأنهم فقراء، قد يمنعون لما يخشَوْن من الفقر،** ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، الذي له الغِنى المطلق الذي لا يتطرَّق إليه نقصٌ بوجه من الوجوه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**فبهذه الفُروق يُعلَم جهلُ المشركين به، وسفَهُهم العظيمُ، وشدَّةُ جَراءتهم عليه،** ويُعلمُ أيضا الحكمةُ في كَون الشرك لا يَغفرُه اللهُ تعالى، لأنه يتضمَّن القَدح في الله تعالى».

لخَّص العلامة ابن القيم الكلامَ عن الشفاعة وشروطِها مع الردِّ على من اتخذ الوسائطَ من دون الله في «النونية»[٢]، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالشِّرْكُ تَعظيمٌ بجَهْلٍ مِن قِيَا ... سِ الرَّبِّ بالأُمَراءِ والسُّلْطانِ

ظَنُّوا بأَنَّ البَابَ لا يُغْشَى بِدُو ... نِ تَوَسُّطِ الشُّفَعاءِ والأَعْوانِ

ودَهَاهُمُ ذاكَ القِياسُ المُسْتَبِينُ ... فَسادُه بِبَداهَةِ الإنسانِ

الفَرْقُ بَينَ اللهِ والسُّلْطانِ مِنْ ... كُلِّ الوُجوهِ لمن له أُذُنانِ

١- «التفسير» (ص ٨٤٤).

٢- (ص ٢٩٩).

إِنَّ الملـــوكَ لَعـــاجِزُونَ ومـــا لَهُـــمْ عِلْـــمٌ بـــأَحوالِ الـــدُّعَا بـــأَذانِ
كَـــلاَّ ولا هُـــمْ قـــادِرونَ عـــلى الَّـــذي يَحتاجُـــهُ الإنســـانُ كُـــلَّ زمـــانِ
كَـــلاَّ ومـــا تِلـــكَ الإرادَةُ فِـــيهُمُ لِقَضَـــا حَـــوائِجِ كُـــلِّ مـــا إنســـانِ
كَـــلاَّ ولا وَسِـــعُوا الخَلِيقَـــةَ رَحمَـــةً مِـــنْ كُـــلِّ وَجْـــهٍ هُـــمْ أُولُـــو النُّقصـــانِ
فلِـــذلِكَ احتـــاجُوا إلى تِلـــكَ الوَسَـــا ئِـــطِ حَاجَـــةً مِـــنهُمْ مَـــدَى الأزمـــانِ
أمَّـــا الـــذي هُـــوَ عـــالِمٌ للغَيْـــبِ مُقْـــ ـــتَدِرٌ عـــلى مـــا شـــاءَ ذُو إحســـانِ
وتَخافُـــهُ الشُّـــفَعاءُ لـــيسَ يُريـــدُ مِنْـــ ـــهُمْ حاجَـــةً جَـــلَّ العَظـــيمُ الشَّـــانِ
بَـــلْ كُـــلُّ حاجـــاتٍ لهُـــمْ فَإليـــهِ لا لِسِـــواهُ مِـــن مَلَـــكٍ ولا إنســـانِ
ولَـــهُ الشَّـــفاعَةُ كُلُّهـــا وهْـــوَ الـــذي في ذاكَ يَـــأذَنُ للشَّـــفِيعِ الـــدَّانِي
لِمَـــنْ ارتَضَـــى مِمَّـــنْ يُوَحِّـــدُهُ ولَمْ يُشْـــرِكْ بِـــهِ شـــيئًا لِـــمَا قَـــدْ جاءَ في القُـــرآنِ
سَـــبَقَتْ شَـــفاعَتُهُ إلَيـــهِ فَهْـــوَ مَشْـــ ـــفُوعٌ إليـــهِ وشـــافِعٌ ذُو شَـــانِ
فَلِـــذا أَقـــامَ الشَّـــافِعِينَ كَرامَـــةً لَهُـــمُ ورَحْمَـــةَ صـــاحِبِ العِصْـــيانِ

الافتقار لله وصف ذاتي للمخلوق

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والـــفَقْرُ لـــي وَصْـــفُ ذاتٍ لازِمٌ أبَـــدًا

كمـــا الغِـــنى أبَـــداً وَصْـــفٌ لَـــهُ ذاتِـــي

وهذا مِن أحسن وأشهر الأبيات في هذه المنظومة، لـجمال لفظه، ومتانة معناه، إذ هو لُبُّ هذه القصيدة، وخُلاصة ما فيها من مَعانٍ سديدة، ولهذا كَـثُر الاستشهاد به مفرَدا في عدد من المؤلفات، وقد سبَق بيانُه في مقدمة شرحِ هذه الأبيات.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والفَقْرُ لي وَصْـفُ ذاتٍ**): أي أنَّ الافتقار لله نَعتٌ وصِفةٌ لا تَنفكُّ عن العبد بحال من الأحوال، بل هي مُلازِمَةٌ له أبدا، ولهذا قال: (**وَصْـفُ ذاتٍ لازِمٌ أَبَدًا**)، لأنه من لوازم العُبودية لله جَلَّجَلَالُهُ بل هو حقيقتها وقُطب رحاها، ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[السجدة: ١٥ –١٦]، وفي هذا إظهار لذُلِّ وخُضوع العبودية، أمام عِزِّ وسُلطان الربوبية.

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**إن العبادةَ هي غاية الذلِّ والخضوعِ مع الشعور بغاية الضَّعف والافتقار**، ومِن مقتضى الضَّعف أن يخافَ ويَوْجَل، ومِن مقتضى الافتقار أن يرجُوَ ويَطمَع».

ولهذا قال شيخ الإسلام بعدها: (**كما الغِـنى أبـداً وَصْفٌ لَـهُ ذاتِـي**): أي أنَّ غِنى المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفٌ ذاتي، كما أن افتقار خلقه إليه وصفٌ ذاتي.

١- «الآثار» (١/ ٤٤٨). وانظر أيضا (١/ ٢١٩).

مَن عَرَف نفسَه عَرَف ربَّه

قيل قديمًا: «**مَن عَرَف نفسَه عَرَف ربَّه**»[١].

قال ابن القيم[٢]: «**وفيه ثلاثة تأويلات:**

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربَّه بالقوة، ومن عرفها بالعجز عرف ربَّه بالقدرة، ... فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفةُ العبد

١- قال ابن تيمية في «الفتاوى» (١٦/ ٣٤٩): «**وبعض الناس يروي هذا عن النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وليس هذا من كلام النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ولا هو في شيء من كتب الحديث ولا يعرف له إسناد**. ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة -إن صح- «**يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك**». وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحًا أو فاسدًا لا يمكن الاحتجاج بلفظه فإنه لم يثبت عن قائل معصوم. لكن إن فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى سواء دل عليه هذا اللفظ أو لم يدل. وإنما القول الثابت ما في القرآن وهو قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[الحشر: ١٩]، فهو يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس، وحينئذ فمن ذكر الله ولم ينسه يكون ذاكرا لنفسه ...». وانظر كلام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عليه في «الضعيفة» (٦٦)، فهو مفيد!.

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٣١٨). وانظر «الفتاوى» (٩/ ٢٩٧)، و«طريق الهجرتين» (ص ١٢)، و«الفوائد» (ص ١٧٠).

بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ازدادت معرفته لربِّه بأوصاف كماله [=**وهذا من باب قياس العكس**].

والتأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلَقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحق بالكمال [=**وهذا من باب قياس الأولى**].

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي، أي كما أنك لا تعرف نفسَك التي هي أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربَّك وكيفية صفاته؟ [=**وهذا فيه قطع الطمع عن إدراك كُنه الخالق سبحانه**]».

قلت: ويمكن أن يَجمَع هذه التأويلات الثلاث قولُنا في ذكر الله: «**سبحان الله والحمد لله والله أكبر**»، فنُسبِّح اللهَ وننزهه ونُقدسه عن نقص المخلوقات، ونَحمدُه ونُثني عليه بإثبات المحامد والكمالات، ونُكبِّره ونُعظِّمه ونُنزه عن مُماثلة الكائنات، ونقطع بأن ذاته وأسماءه وصفاتِه لا تتصورها الخيالات ولا تُحيط بها الإدراكات... سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم!!

وقد جمع الله سبحانه بين فقر المخلوق وكمال غنى الخالق في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[محمد: ٣٨]، وقوله جَلَّجَلَالُهُ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]، **فبيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فقرَ العباد إليه أَمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أَن كونه غنياً حميداً أمر ذاتي له**، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أَوجبه، وفقر مَن سواه إليه ثابت لذاته لا لأَمر أَوجبه...

فالفقير بذاته محتاج إلى الغَني بذاته... ويستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أَن يكون الرب سبحانه إلا غنياً، كما أَنه يستحيل أن يكون العبدُ إلَّا عبدًا، والربُّ إلَّا ربًّا.[١]

وفي حديث الاستسقاء، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ الغَنِيُّ، ونَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ...**»[٢].

يقول حافظ حكمي رَحِمَهُٱللَّهُ في «سُلَّم الوُصول»[٣]:

وهْـــوَ الْغَنِـــيُّ بِذَاتِـــهِ سُـــبْحَانَهُ جَـــلَّ ثنَـــاؤُهُ تعَـــالَى شَـــانُهُ

وكُـــلُّ شَيْءٍ رِزْقُـــهُ عليـــهِ وكُلُّـــنَا مُفْتَقِـــرٌ إِلَيْـــهِ

فكما أَنَّ جميعَ المخلوقات مُفتَقِرةٌ إليه تعالى في وجودها فلا وجودَ لها إلَّا به، فهي مُفتَقِرةٌ إليه في قِيامها فلا قَوامَ لها إلَّا به، فلا حركةَ ولا سُكونَ إلَّا

١- انظر «طريق الهجرتين» (ص ١١).

٢- رواه أبو داود (١١٧٣)، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦٦٨).

٣- وقد يسَّر الله لي بمَنِّه شرحَ هذه المنظومة المباركة في ٢٤ مجلسًا، وهي منشورة.

بإذنه، فهو الحيُّ القَيُّومُ القائمُ بنفسِه فلا يحتاجُ إلى شيء، القَيِّمُ لغيرِه فلا قَوامَ لشيء إلَّا به، **فلِلخالِق مُطلَقُ الغِنى وكمالُه، وللمَخلوق مُطلَقُ الفَقر إلى الله وكمالُه.**[١]

يقول شيخنا صالح بن عبد الله العصيمي:[٢]

فَـــقْرُ القُـــلُوبِ إلَـــى الإلَـــٰهِ ضَـــرُورَةٌ

يـــا وَيْـــلَ قَلْـــبٍ بَـــاءَ بِالحِرْمَـــانِ

قال أبو حَفْصٍ: «**أحسَنُ ما يَتوسَّلُ به العبدُ إلى الله: دوامُ الافتقارِ إليه على جميع الأحوال، ومُلازمةُ السنة في جميع الأفعال، وطلب القُوتِ من وَجهٍ حلال**».[٣]

١- «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/ ١٨٧)، للحكمي.

٢- في مطلع منظومته «المعاني الحسان في نصح أهل الإيمان»، وقد شرحتها في رسالة بعنوان: «مرابع الإحسان شرح المعاني الإحسان»، يسَّر اللهُ طبعَها.

٣- انظر «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٣)، «منزلة الفقر»، ففيه عدةُ آثارٍ في الباب.

الفقر لله نوعان: كوني وشرعي

بيَّن ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الفقرَ إلى الله هي حالُ الجميع، فلا يخرُج عنها عاصٍ ولا مُطيع، فقال:

وهــذهِ الحَــالُ حَــالُ الخَلْــقِ أجْمَعِهِــمْ
وكُلُّــهُمْ عِــنْدَهُ عَبْــدٌ لَــهُ آتِــي

فالكلُّ فقير لله، كما أن الكلَّ عبيد لله.

وههنا سؤال: وهو أنَّه إذا كان الفقرُ والعبوديةُ مُلازِمَين لجميع الخَلق: مؤمِنِهم ومن كَفر، فكيف يُمدَحُ صاحبُهما ويَنبُلُ بين سائر البشر؟

والجواب: أنَّ التفصيل في هذا المَقام هو سبيلُ أهلِ الحقِّ والعَدلِ والإيمانِ، كما قال العلامة ابن أبي العِز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وكم يزُول بالاستفسار والتفصيل كثيرٌ من الأضاليلِ والأباطيل**».

وما أجملَ قولَ ابنِ القيم في «النونية»[٢]:

فعَلَيكَ بالتَّفصِيلِ إنْ هُمْ أَطلَقُوا أو أَجْمَلُوا فعَلَيكَ بالتِّبْيَانِ

١- «شرح الطحاوية» (ص ١٢٦).

٢- (ص ١٢٩).

وعليه، فالجواب عن هذا الإشكال أن يُقال: إنَّ الفقرَ نوعان[١]:

- **كونيٌّ اضطراريٌّ، وهو فقر عام**، لا خروجَ لبَرّ ولا فاجِرٍ عنه، وهذا لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كَون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.
- **وشرعيٌّ اختياريٌّ، وهو فقر خاص**، ويحصُل نتيجةَ عِلمَين شريفين:
  - **أحدُهما**: معرفة العبد بربه.
  - **والثاني**: معرفته بنفسه.

فمتى حصَلَت له هاتان المعرفتان أَنتجتا له فقرًا هو عَينُ غِناه، وعنوانُ فلاحِه وهُداه، وتفاوتُ الناس في هذا الفقر بحَسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين.

وقسَّمه ابن القيم بالنظر إلى حق الله وتوحيده إلى:[٢]

- **فقر إلى ربوبية الله**، وهو فقر المخلوقات بأسرها.
- **وفقر إلى ألوهية الله**، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع.

١- «طريق الهجرتين» (ص ١٢)، بتصرف.

٢- المرجع السابق (ص ١٤)، بتصرف يسير.

والعُبوديَّةَ كذلك نوعان:[١]

o **كونيةٌ اضطراريَّةٌ**، وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملةٌ لجميع الـخَلق لا يخرُج عنها أحدٌ، لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[آل عمران: ٨٣]، ولقوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم: ٩٣]، فهي شاملةٌ للمؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، ولا يُـحمَد عليها الإنسانُ لأنها بغير فعله.

o **وشرعيةٌ اختياريةٌ**، وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣]، وهي التي امتدحَ اللهُ بها نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشرف المقامات وأزكى الحالات.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**وبالفَرق بين هذين النوعين يُعرف الفرق بين «الحقائق الدِّينية»** الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، **وبين «الحقائق الكونية»** التي يشترِك فيها المؤمنُ والكافرُ والبَرُّ والفاجرُ، التي من

١- «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين (ص ٣٩)، بتصرف.

٢- «الفتاوى» (١٠/ ١٥٨)، باختصار.

اكتفى بها ولم يتَّبِع الحقائقَ الدِّينية كان من أتباع إبليس اللَّعِين والكافرين بربِّ العالمين».

واللهُ تعالى قد أرسل الرُّسل، وأنزل الكتب، ليكونوا عبيدًا له شرعًا، كما كانوا عبيدًا له كونًا، وإلى هذا أشار الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله[1]: «**المَقصَدُ الشرعيُّ من وَضع الشريعة: إخراجُ المُكلَّف عن داعية هَواه، حتى يكونَ عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبدٌ لله اضطرارًا**».

١- «الموافقات» (٢/ ٢٨٩). ونحوه في «الاعتصام» (٣/ ٣٠٨).

التعفف والنهي عن المسألة

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـــمَنْ بَـــغى مَطْلَبـــًا مِـــنْ غَيْـــرِ خـــالِقِهِ
فَهْـــوَ الجَهـــولُ الظَّلُـــومُ المُشـــْرِكُ العَـــاتِي

وهذا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جميل العبارة، ودقيق الإشارة، فإنَّه إذا كان كُلُّ عبدٍ فقيرًا لمولاه، وأنَّ هذا أمر لازمٌ لسائر عِبادِ الله، ظَهر بذلك أنَّ الـمَخلوق لا يملك له من الله شيئًا، لأنَّه ضعيف مثلُه، مَربوبٌ مثلُه، مُعبَّدٌ مُذلَّل لله مثلُه، وبهذا قَطَع أطماعَه عن الـخَلق، وأقبل بقلبه وجوارحِه على الحق، يرجو رحمته وفضلَه، ويخافُ عذابه وبَطشَه، **لأنَّ الغِنَى الحقيقيَّ: هو عَينُ الافتقار إلى الملك الجبَّار، والعزَّة الحقيقيَّة: هي التذلُّلُ بين يديه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، فإنَّ رؤيةَ غِنَى النَّفسِ: سببُ الطُّغيان، والاستغناءَ عن الله: سُلَّمُ الهلاك والخِذلان**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾[الليل: ٨-١٠][1]، فلما استغنى عن ربه، حِيلَ بينه وبين قلبِه، فصُرف عن التوفيق والإحسان، وسُلك به إلى طريقِ البُؤس والحِرمان.

١- انظر «طريق الهجرتين» (ص ١٧)، و«تفسير السعدي» (ص ٩٢٦).

ولهذا قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَمَنْ بَغى مَطْلَباً مِنْ غَيْرِ خالِقِهِ)**: أي فمن ابتغى حاجاتِه عند غيرِ الله الذي خلَقه، وسخَّر له ما في الأرض ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحج: ٦٥]، **(فَهْوَ الجَهولُ)**.

وتعبيره بـ**(خالِقِهِ)**: فيه إشارة إلى ما سبَق الإنباهُ إليه، من أن الرَبَّ المالكَ الخالقَ هو الذي ينبغي التوكل عليه، والإنابة إليه.

وقوله: **(فَهْوَ الجَهولُ)** أي بقُدْرَة الله الغنيِّ الذي بيده مفاتيحُ كلِّ شيء، وهو **(الجَهولُ)** بدِينه الذي حرَّم المسألةَ والمذلَّةَ للناس، ولم يُبحْها إلَّا حالَ الضرورات، والضرورات تُبيح المحظورات.

وكذلك هو **(الظَّلُومُ)** لنفسِه بمعصية ربِّه، والتِفاتِه عنه بقلبِه، مع ما في ذلك من أذيَّةٍ للمسؤول، وإهانة للسائل.

مفاسد الـمسألة على السائل والـمسؤول

قال شيخ الإسلام في سؤال المخلوق[١]: «**هو ظلمٌ في حقِّ الربوبية، وظلمٌ في حقِّ الـخَلق، وظلمٌ في حقِّ النفْس**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**والمسألةُ في الأصل حرام[٣]، وإنما أُبيحت للحاجة والضرورة، لأنها ظلمٌ في حق الربوبية، وظلمٌ في حق المسئول، وظلمٌ في حق السائل**.

١- نقل هذه العبارة عنه تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٩١)، وشرحها.

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٥٦٤)، ونحوه (١/ ٤٩١)، بتصرف.

٣- **اتفاقًا**، وممن نقل الإجماع النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مسلم» (٤/ ١٣٨). وانظر «التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ١٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٤٤) عند قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣]، و«مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة (ص ٤٠٧)، و«الرد على البكري» (ص ١٩٠)، وفيه فصل حسَن في النهي عن سؤال المخلوق، وما يتعلق بذلك من مسائل.

وغاية ما في المسألة أنَّها مباحة إباحةَ الميتة للمضطرِّ، وقد ذهب الإمام أحمد، واختاره ابن تيمية -ونقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٩٠)- إلى أنَّها لا تجب حتى مع الضرورة.

أما الأول: فلأنه بَذل سؤالَه وفقرَه وذُلَّه واستعطاءَه لغيرِ الله، وذلك نوعُ عبودية، فوضَع المسألةَ في غيرِ موضعها، وأنزَلها بغيرِ أهلها، **وظلَم في حقِّ توحيده وإخلاصه، وفقرِه إلى الله**، وتوكلِه عليه ورضاه بقسمته، واستغنى بسؤالِ الناسِ عن مسألة رَبِّ الناس، وذلك كلُّه يَهضُم من حقِّ التوحيد، ويطفئ نورَه ويُضعِف قوَّتَه.

وأما ظلمُه للمسئول: فلأنه سأله ما ليس عنده، فأوجب له بسؤاله عليه حقًّا لم يكُن له عليه، وعرَّضه لمشقة البَذل، أو لَوْمِ الـمَنع. **فإنْ أعطاه أعطاه على كراهة، وإن منعه منعه على استحياء وإغماض**[1]، هذا إذا سأله ما ليس عليه، وأما إذا سأله حقًّا هو له عنده، فلم يدخل في ذلك، ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمُه لنفسِه: فإنه أراق ماءَ وجهِه، وذَلَّ لغير خالقه، وأنزل نفسَه أدنى المنزلتين[2]، ورضِي لها بأبخس الحالتين، ورضي بإسقاط شَرف نفسِه،

١- جاء في «الفتح» (٤/ ٤٢٨) أنه حكي عن بعض الصالحين أنه كان إذا احتاج سأل ذمِّيًا لئلَّا يعاقَب المسلمُ بسبَبِه لو رَدَّه.

٢- قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله**»، رواه البخاري (١٤٢٧)، واللفظ له، ومسلم (١٠٤٢).

ومن نفائس «لامية ابن الوردي» قولُه :

=

وعِزَّةِ تَعَفُّفِه، وراحةِ قناعته، وباع صبرَه ورضاه وتوكلَه، وقناعتَه بما قُسِم له، واستغناءَه عن الناس بسؤالهم. **وهذا عَيْنُ ظلمه لنفسِه، إذْ وضَعها في غيرِ موضعها**، وأخمَل شرفَها، ووضع قدرَها، وأذهب عِزَّها، وصَغَّرها وحقَرها، ورضِي أن تكونَ نفسُه تحت نفس المسئول، ويدُه تحت يده، **ولولا الضَّرورة لم يُبَح ذلك في الشرع**».

وزاد الحافظُ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، **أوجهًا أخرى:**

منها: أن اللهَ يـحِبُّ أن يُسأل، ويغضبُ على من لا يسأله، فإنَّه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه، ويدْعوه ويفتقروا إليه، ويـحِبُّ الـمُلِحِّين في الدعاء، والمخلوق غالبًا يَـكرَه أن يُسأل لفقره وعَجْزه.

قال ابن السَّمَّاك: «**لا تَسأَلْ من يَفِرُّ منك إن تَسْألْـهُ، ولكن سَلْ من أمرَك أن تَسْألَـهُ**».[٢]

=

أعــذبُ الألفــاظِ قَــولي لــكَ خُــذْ وأَمَــرُّ اللفــظِ نُطــقي بِلَعَــلّ

ولي على هذه القصيدة الرائقة شرحٌ صوتي مطوَّل منشور في قناتي على «اليوتيوب».

١- انظر «نور الاقتباس»، الرسائل (٢/ ٤٦-٥٦)، بتصرف وزيادات.

٢- «حلية الأولياء» لأبي نُعيم (٨/ ٢١٠). نقلته من «الحلية» بلفظه الذي يختلف يسيرًا عما ذكره ابن رجب. وهكذا فعلت مع جملة من الآثار التي يستشهد بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أعزوها وأنقلها بلفظها، إن تيسر.

لا تَسـألَنَّ أخـاكَ يومًـا حاجَـةً وسَـلِ الـذي أبوابُـه لا تُحجَـبُ
اللهُ يَغضـبُ إنْ تَرَكـتَ سُـؤالَهُ وبُنـيُّ آدَمَ حِـينَ يُسـألُ يَغضـبُ
فاجعَـل سـؤالَك للإلـهِ فـإنَّما في فَضـلِ نعمـةِ ربِّنـا نَتَقَلَّـبُ

وفي الحديث قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يغضبْ عَلَيْهِ**»[١].

وكان يحيى بن معاذ يقول: «**يا مَن يَغضَبُ على مَن لا يسْألُه، لا تَمنَع من قد سألَك**».[٢]

ومن شعر أبي العَتاهِية:

كُـلُّ مَـن لَم يَحـتَجِ النـا سُ إِلَيـهِ صَـغَّروهُ
وإِلى مَـن رَغِـبَ النـا سُ إِلَيـهِ أَكـبَروهُ
لَـو رَأى النـاسُ نَبِيًّـا سـائِلاً مـا وَصَـلوهُ
وهُـمُ إنْ طَمِعـوا في زادِ كَلـبٍ أَكَلـوهُ
لا تَـراني آخِـرَ الـدَّهْ رِ بِتَسـآلٍ أَفـوهُ
أَفضَـلُ المَعـروفِ مـا لَـمْ تُبتَـذَل فيـهِ الوُجـوهُ
أَنـتَ مـا اِستَغنَيتَ عَـن صا حِبِـكَ الـدَّهْرَ أَخـوهُ
فَـإِذا اِحتَجـتَ إِلَيـهِ سـاعَةً مَجَّـكَ فُـوهُ

١- رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٣٧٣).

٢- «صفة الصفوة» (٢/ ٢٩٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والعبدُ كلَّما كان أذَلَّ لله وأعظمَ افتقارًا إليه وخضوعًا له، كان أقربَ إليه، وأعزَّ له، وأعظمَ لقدره، فأسعدُ الـخَلق: أعظمُهم عبوديةً لله. وأما المخلوق فكما قيل: «**احتَجْ إلى من شئتَ تكُن أسيرَه، واستغْنِ عمَّن شئتَ تكُن نظيرَه، وأحسِنْ إلى من شئتَ تكُن أميرَه**»».

قال الشاعرُ ناظمًا هذا الـمعنى:[٢]

تَفَضَّـلْ علـى مَـن شِـئتَ واعْـنَ بـأَمرِهِ
فأنـتَ، ولـو كـان الأميـرَ، أميـرُهُ
وكُـنْ ذا غِنًـى عَمَّـنْ تشـاءُ مِـن الـوَرَى
ولـو كـان سُـلطانًا فأنـت نَظِيـرُهُ
ومَـن كنـتَ مُحتاجًـا إليـهِ وَوَاقِفًـا
علـى طَمَـعٍ منـهُ فأنـت أَسِـيْرُهُ

١- انظر «الفتاوى» (١/ ٣٩، وما بعدها)، وهو كلام طويل نافع في هذا الباب، أنصحك -أيها القارئ الكريم- أن تطالعه بتأمل، حتى تفهم هذا الأصل العظيم الذي جاءت به جميع الأنبياء والرسل، وهو الافتقار إلى الله والاستغناء به عن كلِّ ما سواه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- انظر «صيد الخاطر» (ص ٢٥٩).

فأعظمُ ما يكونُ العبدُ قَدْرًا وحُرمةً عند الخَلق إذا لم يَحتَج إليهم بوجه من الوجوه، فإنْ أحسنْتَ إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظمَ ما يكونُ عندهم، ومتى احتجْتَ إليهم - ولو في شَربة ماء - نَقُصَ قَدْرُك عندهم بقَدْر حاجتِك إليهم، **وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكونَ الدِّينُ كلُّه لله، ولا يُشرَكَ به شيءٌ.**[١]

قال الشاعر:[٢]

مَـن عَـفَّ خَـفَّ علـى الصَّـديقِ لِقـاؤُهُ

وأَخـــو الحَـــوائِجِ وَجهُـــهُ مَمْلـــولُ

وفرقٌ بين حالِ العبد وهو مـحْسِنٌ للناس وهم محتاجون إليه، وحالِه وهو محتاجٌ إليهم، فإنه متى احتاج إليهم نقُص حبُّهم وإكرامُهم وتعظيمُهم بحسب ذلك، وإنْ قضَوا حاجتَه.[٣]

وهذا حالُ الناسُ غالبًا، ولا ينجو منه إلَّا القليلُ من عباد الله.

فـإنْ تـنجُ منهـا تـنجُ مِـن ذي عظيمـةٍ

وإلَّا فـــإني لا إخالُـــك ناجيـــا

١- انظر «الفتاوى» (١/ ٣٩).

٢- «كتاب الأمثال والحِكَم» للرازي صاحب «مختار الصِّحاح» (ص ٦٢).

٣- انظر «مجموعة سائل ومسائل متنوعة» لابن تيمية (ص ٦٦).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**غالِبُ الـخَلق يطلُبون إدراكَ حاجتِهم بك وإن كان ذلك ضررًا عليك**، فإن صاحبَ الحاجة أعمى لا يَرى إلَّا قضاءَها، فهُم لا يُبالون بمَضَرَّتك إذا أدركُوا منك حاجتَهم، بل لو كان فيها هلاكُ دنياكَ وآخرتِك لم يُبالُوا بذلك».[١]

والربُّ تعالى أكرمُ ما تكونُ عليه أحوَجُ ما تكون إليه، والـخَلقُ أهونُ ما تكون عليهم أحوجُ ما تكون إليهم.[٢]

ومنها[٣]: أن اللهَ تعالى يَستدعِي مِن عباده سؤالَه، وينادي كلَّ ليلة: «**مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ**».[٤]

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦].

١- «طريق الهجرتين» (ص ٦٦).

٢- انظر «الفتاوى» (١/ ٣٩).

٣- أي: من أوجُهِ مَنعِ المسألةِ وذمِّها، وبيان ما فيها من مفاسد في الدنيا والآخرة.

٤- في حديث «النزول» المتواتر، الذي رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨). وانظر كتابي «مختصر نهج الاقتصاد» (ص ٣٦-٤٢).

فأيُّ وقتٍ دعاه العبدُ وجدَه سَميعًا قريبًا مُجيبًا، ليس بينه وبينه حجابٌ ولا بَوَّاب، وأما المخلوقُ فإنَّه يمتنع بالحجاب والأبواب، ويعسُر الوصول إليه في أغلَب الأوقات.

قال طاووس لعطاء: «**إيَّاكَ أنْ تَرْفعَ حَوَائِجَكَ إلى مَن أَغْلَقَ دُونَكَ بَابَه، وَجَعَلَ دُونَكَ حِجَابًا، وعليك بطَلَبِ حَوَائِجَكَ إلى مَن بَابُهُ مَفْتُوحٌ لك إلى يوم القيامة، طَلَبَ منك أَن تَدْعُوَهُ، ووعَدكَ الإجابة**».[١]

ويُنسَبُ للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولُه[٢]:

إذَا احْتَجَبَ النَّاسُ عَنْ سَائِلٍ فَبَابُ سَائِلِ رَبِّي حِجَابُ

يَعُودُ بِفَضْلٍ عَلَى مَنْ رَجَاهُ وَرَاجِيهِ فِي كُلِّ حِينٍ يُجَابُ

وكان بكرٌ المُزنيُّ يقول: «**مَن مِثلُك يا ابنَ آدمَ؟! متى شِئتَ تَطَهَّرتَ ثم ناجَيْتَ رَبَّكَ، ليس بينَك وبينَه حِجابٌ ولا تُرْجُمان**».

وأنشدوا في هذا المعنى:

قُلْ للَّذينَ تَحَصَّنُوا عَن سائِلٍ بمَنازِلٍ مِن دُونِها حُجَّابُ

إنْ حالَ دُونَ لِقائِكُمْ بَوَّابُكمْ فاللهُ لَيسَ لبابِهِ بَوَّابُ

١- «حلية الأولياء» (٤/ ١١).

٢- «ديوان الإمام الشافعي» (ص ٢٩).

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ وصريحة[١]، حذَّرَنا فيها الناصح الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من ذُلِّ المسألة للناس، وأخبر أن الذي يسأل في غير حاجة معدود في الآخرة من أهل الإفلاس، وأمرَنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤالِ الله من فضله، وإنزالِ الحاجة به، وإظهارِ الفاقة بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **ومن ذلك**:

قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَزَالُ الـمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ، ولَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحم**»[٢]، لأنّه أذهبَ عِزَّ وجهِه وصِيانَتَه وماءَه في الدنيا، فأذهبَ اللهُ مِن وجهِه في الآخرة جمالَه وبهاءَه الحِسِّي، فيَصير عظمًا بِغير لحم، ويذهبُ جمالُه وبهاؤه المعنوي، فلا يبقى له عند الله وَجاهَة.[٣]

قال القاضي عياض المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «**مُزْعَةُ**: أي قطعةُ لحم، **وقيل: معناه**: يأتي يوم القيامة ذليلًا ساقطًا لا وجهَ له عند الله، **وقيل**: هو على

١- انظر في هذا الموضوع كتاب «**ذم المسألة**» للعلامة مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ، ومقالا نافعا بعنوان: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»، للعلامة محمد الخضر حسين التونسي رَحِمَهُ اللَّهُ، ضمن «موسوعة الأعمال الكاملة» (١٨/ ١١٩-١٢٧).

٢- البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)، واللفظ له.

٣- قاله ابن رجب في «نور الاقتباس»، الرسائل (٢/ ٤٧).

٤- «إكمال المعلِم بفوائد مسلم» (٣/ ٥٧٤)، باختصار.

ظاهره، يحشر وجهُه عظمًا دون لحم، عقوبةً من الله، وتمييزًا له وعلامة بذنبه لما طلب المسألة بالوجه، كما جاء في الأحاديث الأخرى من العقوبات في الأعضاء التي كان بها العصيان، **وقيل**: ليس على وجهِه لحمٌ يَقِيه حرَّ شمسِ المحشَر، وهذا ضعيف».

قلت: وكأن هذا الوجهَ الأخيرَ الذي ضعَّفه القاضي قد مال إليه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث أتبع هذا الحديثَ من «**صحيحه**» في باب: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا**»، بحديث «**إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ**»، وكأن السرَّ فيه أن صاحبَ المسألة يأتي يوم القيامة ولا لحم بوجهه، فتكون أذيةُ الشمسِ له أكثرَ من غيره.[١]

قال الشاعر:[٢]

ما اعتَاضَ باذِلُ وَجهِهِ بِسُؤالِه بَدَلًا وإِنْ نالَ الغِنَى بِسُؤالِ

وإذا السُّؤالُ مَعَ النَّوالِ وَزَنْتَهُ رَجَحَ السُّؤالُ وخَفَّ كُلُّ نَوالِ

فإذا ابتُلِيتَ بِبَذلِ وَجهِكَ سائِلًا فابذُلْهُ للمُتَكَرِّمِ المِفْضَالِ

١- انظر «فتح الباري» (٣/ ٤٢٧).

٢- «بهجة المَجالس وأنس المُجالس» (١/ ١٦٨).

وكان الإمام أحمد يقول في سجوده: «**اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنِ السُّجُودِ لِغَيْرِكَ فَصُنْ وَجْهِي عَنِ الـمَسْأَلَةِ لِغَيْرِكَ**».[١]

وما أحسنَ قولَ الحسن بنِ عُبَيْدٍ البَغداديِّ:[٢]

صُـنِ الوَجـهَ الـذي إنْ لم تَصُـنْهُ بَقِيـتَ وأنـتَ في الـدُّنيا ذَلِيـلُ
وعِـشْ حُـرًّا ولا يَحْمِلْـكَ ضُرٌّ عـلى مَرعًـى لـهُ غِـبٌّ وَبِيـلُ

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، ومَنْ أَنْزَلَهَا بِاللهِ أوشك الله لَهُ بالغنى إمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى آجِلٍ**».[٣]

وقبيحٌ بمن عرَف التوحيد، أن يتعرَّضَ لسؤال العبيد، وهو يـجِدُ عند مولاه كُلَّ ما يُريد.[٤]

ولهذا بايع النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعةً من أصحابه على أنْ لا يسألوا النَّاسَ شيئاً، منهم: أبو بكر الصدِّيق، وأبو ذرٍّ، وثوبان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أحدُهم يَسقُطُ سَوْطُه أو خِطامُ ناقَتِه، فلا يَسألُ أحداً أنْ يُناوِلَه إياه.[١]

١- «حلية الأولياء» (٩/ ٢٣٣).

٢- «بهجة المَجالس» (١/ ١٦٨).

٣- رواه أحمد (٣٨٦٩)، أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٤٧٩)، وصححه الألباني، وانظر كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ على الحديث روايةً ودرايةً في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٨٧).

٤- انظر «مدارج السالكين» (١/ ٤٩١).

وقد قيل:[٢]

إنَّ الوُقـوفَ عـلى الأَبـوابِ حِرْمَـانُ والعَجْـزُ أَنْ يَرْجُـوَ الإنسـانَ إنسـانُ
حتـــى تُؤَمِّـــلَ مَخلوقًـــا وتَقصـــدهُ إن كـــانَ عِنـــدك بـــالرحمنِ إيـــمانُ
عَطـاؤُه لَـكَ إنْ أَعطاكَـهُ ضَـعَةٌ[٣] فكيْف إنْ كـان بَعـدَ المَطْـلِ حِرمـانُ
ثِقْ بالَّـذي هُـوَ يُعطِـي ذا ويَمْنَـعُ ذا في كُـلِّ يـومٍ لَـهُ في خَلقِـهِ شـانُ

وقد وصَّى النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجلا فقال له: «**وأَجْمِعِ الإيَاسَ مِمَّا في أَيْدِي النَّاس**»[٤].

وفي هذا الوصية بتوطين النفس على التعلق بالله وحده، في أمور معاشه ومعاده، فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله، ويوطن نفسَه على اليأس مما في أيدي الناس، فإن اليأسَ عِصمة، ومن أيِس من شيءٍ استغنى عنه.

=

١- انظر «صحيح مسلم» (١٠٤٣).

٢- «بهجة المَجالس» (١/ ١٧١).

٣- أي ذُلٌّ وهَوَانٌ ودَناءةٌ. انظر «النهاية في غريب الحديث» (ص ٧٢٧).

٤- رواه أحمد (٢٣٤٩٨)، وابن ماجه (٤١٧١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٤٠١).

فكما أنه لا يَسأل بلسانه إلَّا الله، فلا يُعَلِّق قلبَه إلَّا بالله، فيبقى عبدًا لله حقيقةً، سالـمًا من عبودية الـخَلق، قد تحرَّر من رِقِّهم، واكتسبَ بذلك العِزَّ والشَّرَفَ، **فإنَّ المتعلِّق بالـخَلق يكتسب الذلَّ والسُّقوطَ بحَسب تعلُّقه بهم.**[١]

وقد كان السَّلفُ يجتنبون مثلَ هذه المواقف، حتى قال مطرِّف بن الشِّخير: «**إذا كانت لأحدِكم إليَّ حاجةٌ فليَرفَعْها في رُقْعَـة ولا يُواجِهني بها، فإني أَكرَه أنْ أَرى في وجه أحدِكم ذُلَّ المَسألة**».[٢]

وفي المثل[٣]: «مقاساةُ الفقر هي الـموتُ الأحمر، ومسألةُ الناس هي العارُ الأكبر».

إنَّ الـــمَسائِلَ للرِّجـــالِ مَذلَّـــةٌ تَفْنَـى مَنافِعُهـا ويَخْلُـدُ عارُهـا

١- «بهجة قلوب الأبرار» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٢٠٠).

٢- «بهجة المَجالس وأنس المُجالس» (١/ ١٦٨).

٣- انظر «المستطرَف في كلِّ فنٍّ مستظرَف» (ص ٣٤).

قلت: ومن جلالة هذا الأمر أن أهلَ السنة دونوه في العقائد، ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الذي صنفه في «الاعتقاد»[١]: «ونقول: إن ترك المكاسب غير جائز إلا بشرائط مرسومة من التعفف والاستغناء عما في أيدي الناس، **ومن جعل السؤالَ حِرْفَةً وهو صحيح، فهو مذموم في الحقيقة**».

وأُنبِّهُ في خاتمة هذا المبحث أنَّ الطلبَ العاديَّ -بلا إلحاح مسألة- لايُذَم، **فمُجَرَّد أن تطلبَ من أخيك شيئًا** -قد ينفعك الله به كما لو طلبته أن يُعِيرك كتابا- **فهذا شيء مُتعارَفٌ عليه ولا بأس به**، حتى ذمَّ اللهُ الذين يمنَعون الـماعُون، فلا يُعِيرون ما يُنتفع به مما جرَت العادةُ ببذله والسماحة به.[٢]

١- نقله عنه شيخ الإسلام في «الحموية» (ص ٤٥٧).

٢- أفادني بهذا شيخنا عبد الله العنقري -زاده الله توفيقا-.

ما لا يُقدر عليه إلا الله لا يُطلب من غيره

وأما إن كانت مسألتُه من ميِّتٍ، أو من حيٍّ ولكن فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، كانت ظلمًا أكبرَ، وكُفرًا أكبرَ، وشركًا أكبرَ إجماعًا[١]**، لا يغفره الله إلَّا بالتوبة منه**، لأنَّ الميّت لا يستطيع الإجابة لعدم قدرته على ذلك، والله يقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: ١٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[الأحقاف: ٥-٦]، وهذا نصٌّ صريحٌ أن دعاءَ الأموات شركٌ وكفر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**فأما ما لا يَقدِر عليه إلَّا الله، فلا يجوز أن يُطلَب إلَّا من الله، لا يُطلب ذلك من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا من غيرهم**».

١- انظر «الرد على البكري» (ص ١٩٩، ٤٠٥).

٢- انظر «الرد على البكري» (ص ١٨٤، ١٩٤، ٢٣٧، ٤٠٥...)، و«الفتاوى» (١/ ٣٢٩)، وانظر «فتح المجيد» (ص ٢٠٣، ٤٦٠، ٥٧٢).

وفي الحديث قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لابنته الحبيبة: «**يا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئْتِ مِنْ مالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا**»[١].

وفيه: أنه لا يجوز أن يَسأل العبدُ إلَّا ما يقدر عليه من أمور الدنيا. وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كلِّ ما لا يقدر عليه إلَّا اللهُ تعالى، فلا يجوز أن يُطلَب إلَّا منه تعالى، **فإن ما عند الله لا يُنال إلَّا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضِيَه لعِباده أن يتقرَّبُوا إليه به،** فإذا كان لا ينفع بنتَه ولا عمَّه ولا عمَّتَه ولا قرابَتَه إلَّا ذلك، فغيرُهم أولى وأحرى. وفي قصة عمِّه أبي طالب مُعتبَر.[٢]

قلت: وتفصيل هذا كلِّه في كتب العقيدة والتوحيد، التي اعتنت ببيان حقِّ الله العلي الحميد، وما يضاده من الشرك والتنديد.[٣]

١- البخاري (٤٧٧١)، واللفظ له، ومسلم (٢٠٦).

٢- انظر «فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٢٠٣).

٣- انظر «شرح القواعد الأربع»، «والتعليق على نظم المهمات من كشف الشبهات»، للمؤلف -غفر الله له-، ففيها نقولاتٌ كثيرةٌ في هذا الباب عن علماء السنة والتوحيد.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـــمَنْ بَـــغى مَطْلَبـــًا مِـــنْ غَيْـــرِ خـــالِقِهِ

فَهْـــوَ الجَهـــولُ الظَّلُـــومُ المُشـــْرِكُ العَـــاتِي

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس: ١٠٦]، فسمى المُشرك ظالمًا، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[الزمر: ٦٤]، فسمَّى المُشركَ جاهلًا، وبيَّنَ عاقِبَتَه في الدنيا بإحباط ما له من الحسنات، فقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الزمر: ٦٥]، وبيَّن منزلتَه يوم القيامة في أخسِّ الدَّرَكات، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[المائدة: ٧٢]... والقرآنُ كلُّه في تقرير هذا الأصل المَتِين، والتدليل عليه بصُنوف من الآيات والبراهين، ولكن اللهَ يطبعُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر: ٣٥]، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**المُشْرِكُ العَاتِي**): أي الذي عتا عن أمر ربه، فتمَرَّدَ عليه، وتجاوز حُدودَ شرعه، وافترى عليه.

والعُتُوُّ: تجاوزُ الـحَدِّ في الكِبر والظلم[١]، ولا ظلمَ أعظمُ من الشرك بالله جلَّ وعلا، إذ هو صَرْفُ لـحَقِّ الله تعالى لغيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غَنيٌّ عن الشُّرَكاء، وجميعُهم إليه فقراء، وفي الحديث القُدسي: «**قال اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».[٢]

١- انظر «التحرير والتنوير» (٨/ ٢٢٦) (١٩/ ٦).

٢- رواه مسلم (٢٩٨٥).

خاتمة القصيدة

ثم خَتمَ الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القصيدة العَذبة بقوله:

والحَـــــمْدُ للهِ مِـــــلْءَ الكَـــوْنِ أجْمَعِـــــهِ

مـا كـانَ مِنْـهُ ومـا مِـنْ بَعْـدُ قَـدْ يَـاتِـــي

فختم هذه الأبيات بحمد الله والثناء عليها، و(**والحَمْدُ لله**): وصف المحمود بصفات الكمال محبَّةً وتعظيمًا، والـ(**أل**) في كلمة (**الحمد**) للاستغراق، وهي الداخلة على واحدٍ من الجنس، لإفادة الشمول والاستغراق، وعلامتُها: صحةُ وقوعِ (كل) مكانَها[1]، والمعنى هنا: كلُّ الـمَحامِدِ حاصلةٌ لله، جلَّ في عُلاه.

وقوله: (لله): أي مُستَحقًّا كلُّه لله، فاللام هنا للاستحقاق والاختصاص، و«الله» عَلَمٌ على الذات الإلهية، وهو اسم ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يُسمَّى به غيرُه، كاسم «الرحمٰن»، ومعناه: المألوه، أي الـمَعبود مَـحبَّـةً وتعظيمًا.

١- وموضع هذا في كتب اللغة عند الكلام على «المُعَرَّف بأداة التعريف»، وفي كتب الأصول عند الكلام على «العام».

والحمد لله على نوعين:[١]

- **حَـمدٌ هو شُكر**، وذلك لا يكون إلَّا على نعمته.
- **وحَـمدٌ هو مَدْح**، وثناءٌ عليه، ومحبةٌ له، وهو ما يستحقه لنفسه سبحانه.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والحَمْدُ لله مِلْءَ الكَوْنِ أَجْمَعِـهِ**): أي أُثني على الله محبةً وتعظيمًا، (**مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ**): أي حمدًا يملأ الكَوْنَ جميعًا، فإنَّ الله تعالى يُحبُّ من عباده أن يحمدوه، وعلى نعمه أن يشكروه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[النمل: ٥٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[القصص: ٧٠]، وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[الروم: ١٨]... فكلُّ ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِ الكَونِ شاهدةٌ بحَمدِه، ولهذا سبَّحَ بحَمدِه السمواتُ السبعُ والأرضُ ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء: ٤٤]، وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عند الاعتدال من الركوع: «**رَبَّنا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ ومِلْءَ الأَرْضِ،**

١- انظر «الفتاوى» (١٠/ ٨٤).

ومِلْءَ ما شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»[١]، فله سبحانه الحمدُ حمدًا يملأُ المخلوقاتِ والفضاءَ الذى بين السماوات والأرض، ويملأُ ما يقدر بعد ذلك مما يشاءُ أن يملأَ بحَمدِه.[٢]

وفي «نونية ابن القيم»:[٣]

وهْــوَ الحمِيــدُ فكُــلُّ حَمْــدٍ واقِــعٌ
أوْ كــانَ مَفْرُوضًــا مَــدَى الأزمَــانِ
مَــلأَ الوُجُــودَ جَمِيَعَــهُ ونَظِيــرَهُ
مِــنْ غَيْــرِ مَــا عَــدٍّ ولا حُسْــبَانِ
هُــوَ أَهْلُــهُ سُــبحانَهُ وبِحَمــدِهِ
كُــلُّ المَحامِــدِ وَصْــفُ ذِي الإحسَــانِ

١- رواه مسلم (٤٧١).

٢- انظر «طريق الهجرتين» (ص ١١٨، وما بعدها)، و«عدة الصابرين» (ص ١٣٨، وما بعدها).

٣- انظر «الحق الواضح المبين» لابن سعدي (ص ٢٧).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١]: «**ومِن فضله أنَّه نسب الحمدَ والشُّكرَ إليهم، وإنْ كان من أعظم نِعَمِه عليهم**، وهذا كما أنَّه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، ثم استقرض منهم بعضَهُ، ومدحهم بإعطائه، والكلُّ ملكُه، ومِن فضله».

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِـي**): هكذا، بالتخفيف (**يَاتِـي**) للوزن الشعري، و(**ما**) في قوله: (**ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِـي**) من صيغ العموم، وقصده -والله أعلم- أنَّ اللهَ يُحمَد حمدًا يملأُ الكونَ أجمعَه على ما أعطى، وما يعطي، وما سيعطي.

وهذا الحمدُ كائنٌ عند حصول المرغوباتِ وعند حلول المرهوبات، **فإنَّ اللهَ يُحمَدُ في جَمِيع مفعولاته، إذْ كلُّ نعمةٍ منه فضل، وكلُّ نقمةٍ منه عَدل**، ولهذا استحقَّ أن يكونَ مَحمُودًا على كلِّ حال، ويَستحِقُّ أن يُحمَد على السَّرَّاء والضَّرَّاء.[٢]

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى ما يُحِبُّ قال: «**الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وإذا رأى ما يكرهه قال: «**الحَمدُ لله على كُلِّ**

١- «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٨٤).

٢- «الفتاوى» (١٠/ ٨٥).

حَالٍ».[١]

وهذا آخر الشرح والبيان على هذه الأبيات اللطيفة، والتفصيل لما فيها من المعاني الشريفة، والتوفيق من عند الله الكريم وحده، وهو المُنعِم المتفضِّلُ على عبده، يهدي من يشاء بفضله، ويُضلُّ من يشاء بعدله، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

أسأل الله العلي العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يرحمَ شيخَ الإسلام أحمدَ ابنَ تيمية، وأن يُسكنَه فراديس جِنانِه، لقيامه بنُصرة الدين بسَيفه ولسانه وبَنانِه، كما أسأله جَلَّجَلَالُهُ أن يجعلني وإياكم ممن حقَّق المَسكنةَ والخُضوعَ والافتقار لله، وعاش مُستَغنيًا بربِّه عن كل ما سواه.

هذا، واللهُ أعلم، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمد، وآلِه وصحبه وسلَّم.

-تمَّت بحمد الله-

١- رواه ابن ماجه (٣٨٠٣)، وغيره، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥).

فهرس الموضوعات

المقدمة ٣
نصُّ القصيدة ٧
شرح القصيدة ٨
التعريف بالقصيدة ٨
تعريف الفقر والمَسكَنة لله ١٢
المفاضلة بين الفقير الصابر والغني الشاكر ١٤
معنى لفظ «الفقر» في القرآن ١٦
معنى لفظ «المسكين» في حديث: «اللهُمَّ أحْيني مِسْكينًا» ٢٥
أمثلة على تواضع الأنبياء ومن سار على طريقهم من الأولياء ٢٧
ظلمُ العبدِ لنفسه ٣٠
الظلم مُكَدِّرٌ للتوحيد ٣٢
الحذر من كمائن النفس الأمارة بالسوء ٣٣
مَن حَفِظ اللهَ في الصِّغَر حَفِظَه اللهُ في الكِبَر ٣٤
مَن ساسَ نفسَه سادَ ناسَه ٣٨
مشاهدة منَّة الله في كل الأحوال ٤٤
أمورٌ إذا استحضرها العبدُ احتقر عملَه ٤٥
النفع والضر بيد الله وحده ٤٧
وَلاية الله لعبده: عامة وخاصة ٥١
مباحث حول الشفاعة وشروطها ٥٤
شروط الشفاعة ٥٦
استغناء الله عن الخلق، وافتقارُهم إلى فضله ٦٠

الرد على شبهة للمشركين في تسوية الخالق بالمخلوقين ٦٦

الافتقار لله وصف ذاتي للمخلوق ٧٣

مَن عَرَف نفسَه عَرَف ربَّه ٧٥

الفقر لله نوعان: كوني وشرعي ٧٩

التعفف والنهي عن المسألة ٨٣

مفاسد المسألة على السائل والمسؤول ٨٥

ما لا يُقدر عليه إلا الله لا يُطلبُ من غيره ٩٩

خاتمة القصيدة ١٠٣

فهرس الموضوعات ١٠٨